قلم مُغترِب
تأليف:
مينا راضي
نُصوص

# قلَم مُغتَرِب

## نُصوص

تأليف: مينا راضي

الكتاب: قلم مُغتَرِب

المؤلفة: مينا راضي

تنقيح و تدقيق: مينا راضي

تصميم الغِلاف: مينا راضي

نشر: Mina Radhi Publications

# إهداء

**إليهِم...**

**إلى مَعشَرِ المُغتَرِبين، التائِهينَ في بلادِ الأين**

**و إلى أولَئِكَ الطافينَ على راحةِ الوَطَن،**

**بينما تَنطلقُ من أعماقِهِم**

**صرَخاتُ مُغتَرِبٍ غَريق**

# مُقَدِّمة

كلُّنا مُغترَبٌ يتَطَوَّحُ في عالمٍ ما، كلٌّ مِنّا نكِرةٌ وسطَ أسرابِ المَعارِف، أو كَيانٌ منَ الوِحدةِ البارِزةِ مِن بينِ مُكَوِّناتِ الحياةِ المُنسَجِمة، هذهِ هي الحقيقة. كلُّ شخصٍ يُعتَبَرُ غَريبًا في عالَمٍ ما، فالغُربةُ تَفيضُ بذاتِها على الجميع. إنَّ مَصادِرَ الغُربةِ عديدة، فهيَ لا تَقتَصِرُ فقط على النُزوحِ إلى البَعيدِ أو هَجرِ البِلادِ التي تَرَعرَعنا في رُبوعِها، و إنَّما هيَ تَكمُنُ في كونِكَ مُتَفَرِّدًا بذاتِكَ و تَجارُبِك. تَهِبُكَ الغُربةُ نوعًا منَ التَمَيُّزِ بينَ تَناسُخِ الأمور.

أتَمنّى ألّا تَضيعوا بينَ مُنعطَفاتِ الروحِ التي تَسوقُ القَلم، لا تُفرِطوا في تَقَمُّصِ الكَيانِ الذي أنتَجَ لكُم هذهِ الفَوضى. إيّاكُم و إسقاطَ مَشاعرِكُم على هذهِ السُطور، فهُناكَ شَعرةٌ فاصِلةٌ تقِفُ ما بينَ التَعَمُّقِ في رَسائِلي و الضَياعِ فيها. حاوَلتُ جَمعَ بعضِ كلماتي المُبَعثَرةِ في هذا الكِتاب، و سَعَيتُ أن أوَثِّقَ تَجارُبي مع الغُربةِ بطَرَفِ القَلَمِ المُندَفِع، مُتَمَنّيةً أن تَعيشوا معي تلكَ القِصصَ مُجَدَّدًا.

لهذا الكِتابِ عُنوانين، اختَر من بينِهِما العُنوانَ المُناسِب. يُمكِنُ أن يكونَ العُنوانُ " قلَمُ مُغتَرِب " و كذلكَ يُمكِنُكَ قراءَتَهُ بطَريقةٍ أخرى أو بتَفسيرٍ آخر، فقط بإضافةِ ضَمّةٍ أخرى على حرفِ الميم، فيَصيرَ العُنوانُ " قلَمٌ مُغتَرِب " إنَّ كِلاهُما يُمَثِّلُ الحَقيقةَ من

زاويةٍ مُعَيَّنة، فعندَ سُقوطِ القلَمِ في أناملِ كاتبٍ مُغتَرِب، يُصابُ القلَمُ بعَدّوى الاغتِراب، فلا يكتبُ سِوى بحُمّى الحَنينِ إلى الوطَن.

## نصيحة:

بينما أنتَ تغوصُ في هذهِ الكلمات، منَ الأفضلِ ألّا تستَمِعَ إلى أغنيةٍ لهيثم يوسف... فذلكَ جُرعةٌ زائدةٌ منَ الحَنين.

# صَفقةُ الحَياة

عقدَت معي الحياةُ صَفقَتَها...

و يا ليتَني لم أرضَ، يا ليتَني أبديتُ رَفضي قبلَ أن أصبِحَ جسدَ مومياءٍ لا تَتَخَلَّلُهُ ذَرّةُ روح. منذُ صِغَري و أنا أبحثُ عن مُستَقبلٍ مَرئي، مُستَقبلٍ يُمكِنُني أن ألمَحَهُ بعينِ التَوَقُّع، كنتُ أحلمُ بمُستَقبلٍ يُكمِنُ لنُبوءاتي أن تَكتَنِهَه. و حينَ عرَضتُ طَلَبي على هذهِ الحياة، أخبرَتني أنها ستُقَدِّمُ ليَ المُستَقبلَ بأبهى صوَرهِ في عُلبةٍ منَ الحَتميّة، بيدَ أنها اشتَرَطَت علي لِقاءَ هذهِ الخِدمةِ أن أذهب، أن أغادِرَ الوطن قاصِدةً بِلادًا مَجهولة، أمَرَتني ألاّ أعودَ أبَدًا.

وافَقتُ على ذلك، في تلكَ الليلةِ فتَحتُ حقيبةَ سَفَري و حَشوتُها بالأمتِعةِ الضَرورية، وضعتُ فيها بعضًا من حاضِري، و الكثيرَ من أيامِ المُستَقبَلِ الطِوال، تارِكًا ذلكَ الماضي مُعَلَّقًا على شَمّاعةِ روحي، في جوفِ بيتِنا البَغدادي القديم.

# ضَجيج

ضَجيج...

ضَجيجٌ يُلاعِبُ دَواخِليَ المُرهَقة...

طَبَقاتُ أصواتٍ مُتَراصّةٍ تُصدِرُ حِزمةً من الأوامرِ و النَواهي... دُفعةً واحدة. أفواهٌ مُتَرَقِّبةٌ لتُطلِقَ رَصاصَها على نفسٍ أذنَبَت لاختيارِها الحياة. صَليلُ أصفادٍ تَخُشُّ في ضَميري المُسَيَّر، تَجُرُّني و تُلصِقُني بتلكَ الصورةِ المُقَدَّسةِ التي يُريدونني أن أكونَها، يَحشُرونَ امتِدادَ أحلامي داخلَ ضيقِ فكرِهِم المُحَنَّطِ بالخُلود. مجتمَعٌ يضعُ أسلاكَ شائِكةً حولَ الخَطأ، مُرغِمًا أبنائهُ على المُكوثِ في كُهوفِ المِثالية.

سَئمتُ مِن سياطِ تَوَقُّعاتِهم الزاجِرةِ لحُريَتي. سئمتُ تلكَ الأصوات المُزَمجِرةَ الجَلادة، أصواتُهُم أشبهُ بمَنجَنيقاتٍ تَقذِفُني بالأوامرِ و النَواهي. يُحَرِّكونَني كَقِطعةِ شطرنجٍ بين كلماتِهم و مُعتَقَداتِهِم، يُحَرِّكونَني بينَ مُرَبَّعينِ وَحيدينِ لا ثالثَ لهُما، على رُقعةٍ مُسَجّاةٍ بالخَيبة، حيثُ يَتَقاذَفونَني بين أن أكون أو ألا أكون. يتَسَرَّبُ ضَجيجُهم إلى داخلي المَثقوب، كَقَطَراتِ سُمٍّ تُطفئُ جذواتِ الأمَلِ المُحتَضِرةِ داخلَ أعماقي.

قلم مُغتَرِب

# لماذا نَكتُب؟!

تُرى لماذا نكتب؟

نكتبُ لأنَّ دَواخِلَنا لم تكُن يومًا مَلاجِئَ للكَلِماتِ اليَتيمة. نكتبُ لأنَّ كلماتِنا مُتَمَرِّدةٌ على سُجونِ الجَماجِمِ و قُضبان الأقفاصِ الصَدرية. لقد رُزِقنا بحُروفٍ أبية، حُروفٍ أشبهَ بالشُهَداءِ في شوارعِ الوطن، أشبَهَ بالذينَ دَسّوا أرواحَهُم ببَسالةٍ في مَخالِبِ المَنون. نكتبُ لأننا أكوامٌ من المَشاعِرِ في عالمٍ مُخَلَّلٍ في قَوارير التَبَلُّد، نحنُ الثَرثارونَ الذينَ ألقاهُم اللهُ في مُحيطٍ أصَم. في أجوافِنا صَرَخاتٌ تُسكَبُ على هيئةِ خُطوطٍ مُنَّمقةٍ مِن حِبر. نكتبُ لأننا ابتُلينا بعُقولٍ مَجنونة، بألبابٍ تعشَقُ الاحتِراقَ في رَمضاءِ الكَلِم، هاويةٌ للوَثبِ على جَمراتِ الحُروفِ بينَ طُرُقاتِ السُطورِ الجائِعة. غالِبًا ما تكونُ عُقولُنا مُستَودَعاتٍ لمُمتَلَكاتِ الآخَرين، لمَشاعِرِهم، لأحاسيسِهم. عُقولُنا المسكينة تَغدو أوعيةً يملَؤونَها بظُروفِهِم. نَنوبُ عنهم في التَعبيرِ و يَتَكَبَّدُ القلمُ عَناءَ الصياغة. إنَّ أقلامَنا تُكابِدُ حَملَ أجِنةِ الغيرِ في أرحامِها، ثم تَخرجُ الحُروفُ بوِلاداتٍ كثيرةٍ مُتَعَسِّرة. نكتبُ لأننا نُحِبُّ استِخراجَ الجَمالِ من صُلبِ الاعتياديةِ المَحضة، نُحِب أن نَصطادَ الكلماتِ العَذبةِ من بُحورِ اللُغة لنُزَينَ بها مُجرَياتِ الأمور. نَحفُرُ بجُنونٍ في كلِّ شيء، فأَذهانُنا و أنامِلُنا تَكرهُ الطَفوَ على السُطوح. كثيرًا ما يَعتَرينا السَأَمُ من تِكرارِ ذَواتِنا، و نَضجَرُ من رَتابةِ الأحداثِ حولَنا. نجِدُ في الوَثبِ بينَ الشُخوصِ مُتعةً لذيذة. يأسِرُنا سَعيرُ الكِتابة، و تُرغِمُنا الأقلامُ على تَبديلِ شَخصياتِنا كَؤلَئِكَ الذينَ يُبَدلونَ جُلودَهُم في جهَنم، حتى الأسماءُ تتَبَدل. نكتبُ لأننا نحبُّ تَعَدُّدَ

الأمكِنةِ و الشُخوصِ و القِصَص، لم نُرِد يومًا أن نُحتَجَزَ في حياةٍ واحِدة. نحنُ نكتُبُ لأنَّ حَبلَ الحياةِ الواحِدةَ يخنِقُ أقلامَنا.

**في ليلةٍ لا أذكُرُ تاريخَها، حينَما كنتُ أبحَثُ عن سببِ وُجودي...**

# حياةٌ بِلا حياة

أصبحنا نعيشُ بِلا حياة، تَعَرَّت كلُّ الأشياءِ من يَراقاتِ المَعنى. لم نعُد نَتَجاذَبُ أطرافَ الحَديثِ بِجِبالٍ من الشَغَف، لم نعُد نُخَلِّدُ لحَظاتِنا بسُيولِ الضَحِكاتِ الصاخِبة. أصبَحَت أوقاتُ الوَجَباتِ مُجَرَّدَ التِفافٍ حولَ الشاشات، على جوقةٍ منَ الصَمتِ لا يُقاطِعُها سِوى صَلصَلةِ مَعالِقَ و أشواك. تناثَرَت عُقولُنا في عَوالِمَ مُتَفَرِّقة، و لَبِثَ كلٌّ مِنا داخلَ كهفِ اهتِماماتِهِ المُغلَق. تَكاثَفَ غَمامُ الانشِغالِ طاغيًا بسُؤدُدِهِ على ذلك الجوِّ الأسَريّ الجميل، و لم يتَبَقَّ من حياتنا القديمةِ سِوى ذكرَياتٍ مَركونةٍ في زَوايا الألباب. ربَّما يكونُ عِقدُ الماضي قد انفَرَط، رُبَّما ضاعَت حَبّاتهُ بينَ قَناطيرِ السنَواتِ المارّة، لكنَّ الحَقيقةَ هي أنَّ بوِسعِنا إنقاذُ ماضينا، بوِسعِنا انتِشالُهُ من لُجِّ النسيان. يُمكِنُ استِعادةُ الذكرَياتِ على هيئةِ أغنياتٍ سَمِعناها سَويًّا، على هيئةِ قصصٍ و إن كانت طُفولية. قد تَختَبِئُ الذِكرى في صُحونِنا، نتَذَوَّقُها في لُقَيماتٍ من طعامٍ يُعيدُنا إلى أيامِ الصِبا.

إنَّ الذِكرَيات لا تَموت، بل تَقبَعُ في البَرازِخِ مُنتَظِرةً منّا أن نُحييها، تَظَلُّ هاجِعةً في قَعرِ النُفوس... بانتِظارِ مِرساةٍ تَنتَشيها.

# أغراضٌ وَحيدة

مُبَعثَرةٌ هي...

تَستَلقي بِرُضوخٍ على حافاتِ اليأس، على شَفى حُفرةٍ مِنَ القُمامة، أغراضٌ لم تَهبِط عليها أصابِعُ منذُ وقتٍ طَويل. مَركونةٌ في سَراديبِ النِسيانِ المُقفَلة. أغراضٌ ضيعَت أصحابَها. قِطَعُ أثاثٍ باليةٍ تَرَبَّعَ فوقَها الزَمان. جالسةً في لُجاجِ الوُجوم، تنتَظِرُ شُخوصًا قد لا يَسلُكونَ خطَّ الرُجوع. جالِسةٌ تُلَملِمُ حبّاتِ التُرابِ كأمٍ فقيرةٍ باحِثةٍ عن الرُز. تُراقِبُ مُرورَ الدَقائقِ الوَبيلةِ المُتَثاقِلةِ دونَ أعيُن، تسمعُ خطواتِ عقربِ الساعةِ دونَ آذان، تتألَّمُ لغيابِ أصحابِها رُغمَ أنها أشلاءٌ من جَماد، رغمَ أنها مُجَرَّدُ كُتَلٍ منَ اللاشُعور. كأنها تنتَظِرُ هُبوبَ عاصِفةٍ ما، عاصِفةٍ تُعيدُ أصحابَها الى أرضِ الوطَن.

عندما يَرى المُقيمونَ في البُيوتِ تلك الأغراضَ اليَتيمة، يَسِحّونَ بسيولٍ منَ الدَمعِ على أولَئكَ الذينَ رحَلوا. كل غَرَضٍ يَنشِبُ أظافِرَهُ في القُلوب، و يَنكأُ بذلكَ جِراحًا كانَت مُخاطة. تَشتاقُ هاتيكَ المُمتَلَكاتُ الى صَليلِ الأبواب، تنتَظِرُ بِشارةَ الأبواب بنَبأِ عودةِ الأصحاب. لكنَّ رُواقَ الصَمتِ يَبقى قائِمًا، مُمتَدًّا فوقَ لا شيء، و تظَلُّ الأغراضُ تَنتَحِبُ بلُغةِ السُكون، تحِنُّ الى أيامِ الاستِعباد، أيامَ كانَت أسيرةَ الأيدي. تسألُ بعضَها بإشاراتِ الجُمود: تُرى أينَ هي تلكَ الغُربة التي رحَلوا اليها؟

ثم يَجيءُ الصَمتُ للمرةِ المليون، كَجَواب...

# وطَني يؤلِمُني

لم أفهَم يومًا مَنهَلَ أوجاعي، لم أفهَم لماذا يَعتَصِرُني ألَمٌ مُبرِحٌ وسطَ فَرحةِ الآخرينَ مِن حولي. كلَّما تعالَت النَغَماتُ و صدَحَت الضَحِكات، لم أكُن أنا أشعرُ سِوى باندِثارٍ مَن حولي. أراهُم يَنغَمِسونَ ببُطئٍ في بِحارِ اللاوُجود، بَل إنني حتى لا أراهُم، لا أرى إلا عُبابًا منَ البُقَعِ الضَبابيةِ على هيئةِ بشَر.

معَ كلِّ عُرسٍ يَجري على أرضِ وطني، مع كلَّ مُناسَبةٍ ارتَدَت بُرقُعَ الفرحِ المؤقَّت، كنتُ أشعرُ بِجُيوشٍ منَ الغَصّاتِ الجاثِمةِ تَتَسَلَّقُ حِباليَ الصَوتية، مُنذِرةً بقُدومِ صَرخة. أراهُم عبرَ نَوافِذَ ضيقةٍ صَغيرةٍ تُسَمى شاشاتِ الهَواتفِ الذَكية، أسمَعُ قَهقَهاتِهِم المُهَرولةِ على الأسلاكِ المُمتَدةِ ما بينَنا، الأسلاكُ الواصِلةِ بينَ الدولِ و القارات، بينَ الوطَن و اللاوَطَن. تلكَ الأسلاكُ التي تَفَضَّلَت على العالمِ بأسرِهِ فأحالَتهُ إلى بُيوتٍ مُتَشابِكة. أراهُم يُلوّحونَ لي مِن هُناك، من تلكَ الأرضِ التي تُدعى الوَطَن. فأغتَصِبُ ابتِسامةً كاذِبةً مِن شِفاهٍ صَدِئةٍ و أعصِرُ منها بعضَ الضَحِكاتِ الفاتِرة. و بعدَ ساعاتٍ تَمُر باستِعجالٍ كالثَواني، أغلِقُ الخَطَّ كأنني أغلَقتُ النافِذةَ المُطِلّةَ على بِلادي. ثم أدرِكُ أخيرًا مَعنى ذلكَ الألَمِ الجاري في عُروقِ الروح، و أقولُ لأمي: وطَني يؤلِمُني...

**في يومِها أضَفتُ إلى رُزنامَتي مُناسبةً جديدةً فاتَتني...**

# يومَ كنتُ هُناك

يومَ كنتُ هُناك...

يومَ كنتُ طِفلًا بينَ أحضانِ وطَني...

اسَيقَظتُ مِن نومي على صوتٍ ظَنَنتُهُ صوتَ الألعابِ النارية، فسألتُ أمي: " هل جاءَ العيدُ يا أماه؟ " شدَّتني إليها بقوّةٍ و أغدَقَتني بِقُبَلٍ خالَطَتها العَبَرات، و أجابَت بصوتٍ مُرتَعِض: " لا يا ولَدي، إنها ألعابٌ ناريةٌ من نوعٍ آخر... " ثم لمَحتُ في زاويةِ عينِها كُرةً صغيرةً أشبهَ بكُراتِ الزُجاج. أخَذتُ أُلُحُّ بالسؤال، لم أعرف ماذا كانَت هاتيكَ الأصوات، كم أزعَجَتني رقصةُ عَلاماتِ الاستِفهامِ في عقلي. قالَت أمي بعدَ إلحاحٍ شديد: " إنها ألعابٌ تلعَبُها الحُكومةُ يا بُنَي، الحُكوماتُ هُنا تلعبُ بشُعوبِها دومًا. " لم أفهَم مَقصِدِها حينئذٍ، أخذَت الأيامُ تَمضي بي كخَرَزاتٍ مُنفَرِطةٍ من خيطِ العُمر، حتى رَماني القَدَرُ في سُجونِ الغُربة. أدرَكتُ حينَها أنني كنتُ أحدَ الخاسِرين في تلك اللُعبة.

# بغدادُ التي

كم تردَّدَت على مَسامِعي تلك التَرانيمُ الصَباحية، صوتُ الراديو المُتَرَنِدِحُ في غُرفتِها...

لم أفهَم يومًا سببَ سَماعِها لتلك الكلِمات الحزينة، أغنياتٌ عن الفِراق، عن الشوق، عن الحَنين، عن البُعد. مُصطلَحاتٌ و كلماتٌ لم يَمضُغها إدراكي في تلكَ الأيام. أسمعُ صوتَ المَواويلِ و أنا ألعبُ في حديقةِ بيتِنا، أعني كانَ بيتَنا.

لم أفهم لماذا كانت جدّتي تُديرُ رَحى الثُبورِ دونَ توَقُّف، لم تتَبين ذاتي الصغيرةُ مَعاني تلكَ العِباراتِ الموَشّاةِ بخَشخَشةِ الراديو. و عندما رحَلتُ عن أرضِ الوطَن، تعَرَّت الحَقيقةُ المُرّةُ أمامي كامرأةٍ هَوجاء. اندَلَقَ النورُ على كلِّ شيءٍ داخلَ لُبّي، و تَجَلّى كلُّ ما حاوَطَهُ الإبهامُ يومًا. عرَفتُ أن جدّتي تُشبِهُ بَغداد.

بَغدادُ التي أمطَرَتنا بِعَطاياها الباذِحة و كسَت حَياتَنا بحَصائِرِ الزَهو، بغداد التي تدثَّرنا بدفئِ سَمائِها و تَوَسَّدنا عُشبَها أو حتى بَلاطَ شَوارِعِها. بغدادُ التي عانَقَتنا بيَديها الفائِضةِ بالخَيرات، يدينِ أطلقَ عليهما الربُّ اسمَي دجلة و الفُرات. لطالما ذرفَت بغدادُ آلافَ الدُموعَ على رحيلِ أبنائِها، كنتُ أسمعُ أنينَها في خَريرِ دِجلة، كنتُ أشعرُ بذلكَ النَسيمِ الرَقيق، و كأنّهُ آهٌ تَقذِفُ بأصدائِها على الآفاق، كأنَّ النَسائمَ تَنهيداتٌ تتَسلَّقُ الوُجوهَ لتَصفعَها برِقّة. كانت بغدادُ تتَنَهَّدُ كثيرًا مثلَ تنَهُّداتِ جدَّتي المُسَلسَلة. كنتُ أشعرُ بدُموعِها الهاطِلةِ مِن السَحاب. كانت تَبكي طوالَ الوقت، تبكي على شُهداءٍ أو مُغتَرِبين، أما الشُهداءُ فيَصحَبُهُم عَزرائيلُ إلى رحلاتٍ أبَدية، و أما المُغتَرِبون فيَستَقِلّونَ طائراتِ القدَر التي تَسوقُهم إلى أراضي الأين. و بينَ الشَهيدِ و المُغتَرِب

تفَرَّقَت دِماءُ مدينَتي. بينَ اللُحودِ و الأراضي البَعيدة ظلّت بغدادُ تَسعى كأمِّنا هاجَر، تَسعى و تَنوحُ على أبنائِها.

# انتِماء

دائمًا ما تَجذِبُني أشياءٌ غريبة، أشياءٌ هي في أعينِ الناس مجرَّدَ جَماداتٍ لم تؤتى منَ الزيادةِ شيئًا، لكنَّ تلك الأشياءَ رغمَ بَساطَتِها تنجحُ في استِئصالي من ذاتي مؤقتًا، تنتَشيني من قالبِ نَفسي المُتَحَجِّرِ كالصَنَم. عندما أراها أو أسمعُها أشعرُ بها تُناديني. أشعرُ بشيءٍ يتَواثَبُ بينَ تَرائِبي، أضغاثٌ رَجراجةٌ في ثَناياي. شُعورٌ لم أجِد لهُ اسمًا، إحساسٌ مجهولُ النسَب أضاعَ هويَّتَهُ في أطمارِ نَفسي. إنّهُ يَعتَريني كلما شاهدتُ علمَ بِلادي يُرَفرِفُ مُصافِحًا عَنانَ السَماء، مارِقًا في طبَقاتِ السُحُب. كلما سمِعتُ اسمَ بَغداد على أحدِ الألسُن، تَجري على وجهي ابتِسامةٌ مجهولةُ المَنبَع، ابتسامةٌ دائمًا ما تُخَفِّفُ من حِدّةِ قسَماتي التي اعتادَت مَراسِمَ الذَوى. كلما وجدتُ أحدًا ينطِقُ بلَهجَتي، كلما تذوَّقتُ طعامًا من يدَي أمي، كلما شاهدتُ على الشاشاتِ مَعالِمَ مدينَتي، يُراوِدُني ذاتُ الشُعور، يَسري في روحي جارِفًا معهُ كومةً من الذِكرَياتِ المُندَسّةِ بينَ خَلايا التَناسي. عندما تَصُبُّ المُصادَفاتُ في أذُني أغنيةً عِراقيةً قديمة، أو عندَما يُثَرثِرُ مُذيعُ الأخبارِ في التِلفاز، يوقِظُني هذا من جُفولي و كأنّهُ يَهُزُّ العِراقيةَ الهاجِعةَ داخِلي. ما زِلتُ لا أعرفُ تَفسيرَ تلك الرَعشةِ المُمتَدّةِ حتى أطرافي. أحاولُ الانغِماسَ إلى أعماقي لأكتَشِفَ ذلك الشُعور، أحاوِلُ جبلَ تعريفٍ له، أحاوِلُ وَصفَهُ بالكلمات، لكنني ما أفلَحتُ يومًا. أشعرُ بوَقعِ ثمانٍ و عشرينَ حَرفًا عاجِزًا مُستَسلِمًا، يجلسُ مَكتوفَ الأيدي في قلَمي، كلُّ تلك الحُروفِ تتَبَخَّرُ من لِساني عندما أهُمُّ بإطلاقِ المُسَمياتِ أو الأوصافِ على شُعوريَ النَكِرة.

يُلازِمُني كلما صادَفتُ قِطعةً من بِلادي، أو نُطفةً من وطَني قد نَثَرَها القدَرُ في طريقي. كلما رأيتُ شيئًا مُتَّسِمًا بالعُروبةِ النَقية، تؤَرجِحُني نَقائِضُ الأحاسيس فما أعودُ أدري أينَ أتَّجِهُ بقَلبي، لذةٌ مَمزوجةٌ بالحَنين، و تَنهيدةٌ تَشي بحَسَراتٍ مُتَلازِبةٍ في قاعِ نَفسي.

تأتي بِضعةُ حُروفٍ لتختَصِرَ كلَّ هذا السَرد...

انتِماء...

# ثَماني و عِشرينَ رَصاصة

في سِلاحي تَحتَشِدُ ثَمانٍ و عشرونَ رَصاصة...

أطلِقُها على أراضٍ بيضاءَ مَلساء، لم يبقَ في جَعبَتي سِوى تلكَ الذَخيرةَ المُتَمَخِّضةَ عن سَنَواتٍ راكِضة، عن حياةٍ مُهَروِلةٍ سَئِمَت مِن بُطئِ خُطواتي. تلكَ الرَصاصاتُ هي حَصيلةُ سنواتٍ من التَسَكُّعِ في دَهاليزِ نَفسي، لَيالٍ طِوالٍ منَ الغوصِ إلى مَساراتٍ لا أعلمُ لها نُقطةَ نِهاية. ظلَّت الرَصاصاتُ في ذلك السِلاح، صامِدةً بعدَ حُروبٍ كَثيرة. رَصاصاتٌ خُلِقَت منَ الرَماد، مُتَراصّةٌ في سِلاحي تنتَظِرُ حاجَتي إليها، تنتَظِرُ أن يُقبَلَ طرفُ القلَمِ ورَقَتَهُ العَذراء، فتَخرجُ هاتيكَ الرَصاصاتُ مُتَكاتِفةً لاحتِلالِ السُطور. كثيرًا ما تنسِجُ ذَخائِري بعضَ التَناقُضات، تُدخِلُ الورقةَ المِسكينةِ في أوجِ سِلسِلةٍ منَ الانقِلاباتِ العَسكَرية، كل جُملةٍ، بل كل حِفنةِ حُروفٍ تنقَلِبُ على الأخرى، كل سَطرٍ ربما يُكَذبُ جارَه، كل بُقعةٍ منَ الحُروفِ المُتَتابِعةِ تُخالِفُ تلكَ التي تَليها. تقَلباتٌ دائمةٌ تَجري على الأوراق، وِلادةٌ يَليها فَناء، مُقارَعاتٌ بينَ القلَمِ و المِمحاة، أفكارٌ مُتَراطِمةٌ تخرجُ منَ الأعماق، تلكَ معرَكَتي الوحيدة. سِلاحي هوَ ذلكَ القلَم، و زِنادي هوَ الفِكرُ المُزدَحِم.

أن أكتُب يَعني أن أكسِرَ رَتابةَ أيامي و تَتابُعَها المُمِل بفأسِ القلَم، أن أعرِجَ من حياتي و أهبِطَ في عَوالِمَ أخرى، أن يُعَوِّضَني الخَيالُ عن كل شيءٍ حَجَمَهُ عني ذلك الواقِعُ اللَعين، أغرَقُ داخِلَ نُفوسِ البَرايا مُتَحَرِّرةً من نفسي، سائِحةٌ أنا مِن روحٍ إلى روح، من مكانٍ الى مكان، مِن زَمانٍ الى زمان، بِلا مُستَقَر.

إن سِلاحي أقوى من كل الأسلِحة، يُتيحُ لي أن أكونَ ما أشاء، أن أتَلونَ و أتَشَكَّل، يُعفيني مِن قانونِ أُحاديةِ هذهِ الذات، طارِفُ القلَمِ هوَ المدخلُ الوحيدُ المؤدي إلي، على تلكَ الورقةِ و بينَ أركانِها، أدخلُ الى الحُريةِ مِن أوسَعِ أبوابِها.

# يومَ قرّرَ العِراق أن يَثور

يومَ قرَّرَ العِراقُ أن يَثور، لم أكُن هُناك...

يومَ قرَّرَ أبناءُ الوطَنِ أن يصرُخوا بصوتِ عِراقيٍ واحِد، لم أكُن هُناك، لم تكُن بحّةُ صوتي نُطفةً وسطَ تِلكَ الصيحةِ التي زَلزَلَت الكَراسي اللاصِقة، يومَ قرَّرَت بغداد و أخواتُها أن تَنتَفِض، أن تَثورَ على المُغتَصِبين، على مُريقي سُيولِ الدِماء، لم أكُن هُناك. عندَما نَزَعَ العِراقيونَ كمّاماتِ السُكوت، عندَما صدَحَت أصواتُ الحقِّ مِن كل أنحاءِ الوطَن كأذانٍ يُنادي بصلاةِ الجَنازةِ على أرواحِ الظالِمين، عندما تَكاتَفَ أبناءُ بلَدي كأسوارٍ بَشَريةٍ تُطوّقُ الباطِل، لم أكُن هناك. عندَما تَدافَعَ الشَبابُ نحوَ حافاتِ الحياةِ و أغوارِ الموت، لم أكُن بينَهُم. حينَما تَساقَطَ الشُهَداءُ شَهيدًا تِلوَ الآخر كالثِمارِ الناضِجة، عندما دَكَّ مِنجَلُ الحَربِ أراضينا مُنبِتًا شَواهِدَ القُبور، لم أكُن هناك. لا زالَ صوتي مَكبوتًا، لا زالَت الثورةُ عاجِزةً تجلِسُ ما بينَ جَنبي، لا زالَت تلكَ المَسافاتُ اللَعينةُ تُعَرقِلُ طَريقي، لم أتَبوأ غيرَ مَقاعِدِ المُتَفَرّجين، لأنني ما زلتُ مَسجونةً خلفَ جِدارٍ عازِلٍ يُسَمى جِدارَ الغُربة.

## ذاتَ ليلةٍ مِن لَيالي أوكتوبر...

# عامٌ مَضى

**التاريخ: 1/10/2020**

عامٌ مَضى على استقرارِ جُروحنا التي لم تندَمِل، ما زالت ماكِثةً في رُبوعِ الروح لا تنتَقِل. عامٌ مَضى منذ أن فَقدَت عَروسُنا عُذريتَها مُلَطِّخةً بلاطَ الشوارعِ ببرَكِ الدماء القانية. هَرولَ الزمنُ سريعًا، كأنهُ إبرةٌ تُجَرجِرُ خيوطَ الأيامِ ناسِجةً عامًا كاملًا. عامٌ مَضى و نحنُ نصرخُ بذَخائرِ حَناجِرِنا، و نحنُ نثورُ و ننتَفِضُ كالرَواسي تحتَ أوبِلةِ الرصاص. انقَضى عامٌ على أولِ رقصةٍ لتلك القنابلِ في حَلبةِ السماء، أسرابُ الشَظايا و هي تنقَضُّ على صُدورِنا بشَبَقٍ لتُشبِعَ شهوةَ القتلِ على المِلائاتِ الحمراء. مشهدُ اغتِصابٍ يتَكَرّرُ و يَحفرُ تفاصيلهُ الكَريهةَ في كل رأسٍ و كل ذاكِرة. مرَّ عامٌ و نحنُ نشهدُ الأجسادَ تهوي بينما تتَسَلَّقُ الأرواحُ طبقاتِ السماء.

مرَّ شريطُ الوقت صاحِبًا معهُ لحظاتِ شبابِنا المُستعجِل، مرَّت آلافُ الدُموعِ المُتَدَحرِجةِ على مُنعَطَفاتِ الوجوه. مرَّ كل شيءٍ و لكن ما مِن حُريةٍ تائِهةٍ تمُرُّ أمامنا و لو بفعلِ الصُدفة. فأما مِن حُقوقٍ نُطعِمُها لذَواتِنا البشَرية؟ أينَ مَنهَلُ رَثيثِ الكرامةِ؟ ألا يهطِلُ فوق أبناء العراق؟! أما من وُعودٍ تَطَأُ أرضَ الواقع؟ متى... متى ننفِضُ تلك اللواعِجَ و الأوجاع المُتَلازِبةِ على تاريخِنا؟ متى يأتي زَمهَريرُ الانتِصارِ ليُخمِدَ رَمضاءَ الحُروب؟

# ما هي الأوطان

الأوطانُ هيَ أماكِنُ فاقَ جَمالُها حد الوَصف و أصبحَ فائِضًا عن ما تُطيقُهُ الألسُن. الأوطانُ أسِرّةٌ تتندَمِجُ فيها أرواحُنا مع أجسادِنا، في كَيانٍ واحِد، حيثُ تتَلاصَقُ جميعُ أشلائِنا بغِراءِ العُنفوان. الأوطانُ هي صَحائِفُ على الكُرةِ الأرضية، يَكتبُ التاريخُ عليها حَضاراتِه.

دائمًا ما تبدو أوطانُنا و كأنها مُغَلَّفةٌ بمَعاني الطَلاوة، و كأنها بُقعةُ أرضٍ مَكسوّةٌ بقُشورِ البَهاء، لكن الباطِنَ دائمًا ما يَبوحُ بالنَقيض. فعلى تَضاريسِ الأوطانِ نجدُ ألوانَ الخَراب، نجدُ أصنافَ الاستِعبادِ و أطوالًا مُتَعَدِدّةً للسياطِ المُتأهِّبةِ لجَلدِ الكَرامة. في رُبوعِ أوطانِنا يَصولُ الفَقرُ و يَجولُ مُرتاحَ البال، حافِرًا مَعالِمهُ و غارِسًا أماراتهِ على كل الوُجوه، يَنحَتُ التَجاعيدَ المُبَكِّرةَ مؤَجِّلًا رَبيعَ أعمارِنا إلى القيامة. ذاكَ الفَقرُ الذي يَستَحوِذُ بفَراغِهِ على الجُيوب و يَلقَفُ اللُقيماتِ من أفواهِ الجياع، ذلك الفَقرُ الذي يفتحُ نَوافِذَ صغيرةً في جُلودِ الأحذية، فهوَ يُحِبُّ إحداثَ الشُروخِ في كل ما يلمِسُه. فَقرٌ ما زالَ يُمسِكُ بالأوطانَ و يَعصِرُها بقوةٍ ليَنسابَ بينَ مَخالِبهِ رَحيقُ دَمعِ الفُقَراء، يُطَوّقُ الحَناجِرَ و النُفوسَ و الأرواح، يُطوّقُها معًا ناشِبًا أظافِرَهُ مُستَخرِجًا تنَهُّداتٍ لا تنتَهي.

هناكَ في الأوطان، حيثُ تُرعِدُ السُلطةُ بِجَبَروتِها و تُبرِقُ المَناصِبُ بطُغيانِها، السُلطةُ المُنافِقةُ التي تُوَزِّعُ الحُظا النابيةَ، و تَتَلاعَبُ بأبناءِ الشَعبِ كالرياحِ التي تُقَلِّبُ أوراقَ أيلول في أكُفِّها الضَخمة، أوطانُنا تَذخَرُ بأفواهٍ مُزدَرِدةٍ للحُقوق و بُطونٍ مُتخَمةٍ برَغائفِ الجياع، بأجسادٍ مُتَبلِّدةٍ تَكسوها أقمِشةُ العَرايا. فيها يَتَداخَلُ صوتُ تَجَشُّؤِ الحُكّامِ مع قَرقَرةِ بُطونِ المُحتاجين.

كل وطنٍ من أوطانِنا يُشبهُ كَنيسةً على نَوافِذِها تَراصَّت الألوانُ و بَرَقَ الزُجاج، كنيسةٌ تنطلِقُ منها التَرانيمُ و تَتَسَربُ من فتحاتِها الموسيقى، لكن في وسطِها يَنتَصِبُ مَسيحٌ مَصلوب، يقِفُ فاتِحًا ذِراعيهِ بِلا حَراك، مُحَدقًا بالجَميع، كأنهُ عِراقٌ مَربوطٌ مُكَبَّلٌ بأقدارِه.

# إلى اللاوطَن

بعَثتُ ناظِري يومًا لاسكشافِ السَماء، فحَلَّقَ طَرفي خلفَ طُيورٍ تَعومُ في كبدِ تلكَ الزُرقةِ التي لا تَشوبُها غَيمة. سألتُ نفسي مِرارًا: " تُرى إلى أينَ تتَّجِهُ هذهِ الطُيور؟ " فأجابَني اللهُ بسُطورٍ منَ الصَمتِ الطَويل. كانَت أسرابًا مُتَعانِقةً كبُقعةٍ منَ الزَبَدِ الأبيضِ التائهِ وسطَ البُحورِ المُعَلَّقة. لَحِقتُها ذاتَ يوم، ذاتَ يومٍ عندما قرَّرَت ذاتي أن تَسعى وراءَ لُقمةِ المُستقبَل، أن تقفو أثرَ الحياةِ الكَريمة، في تلكَ الساعةِ المَشؤومةِ تَبِعتُ الطُيورَ المُهاجِرة، و ما زالَت عَلامةُ الاستفهامِ مُعَلَّقةً بينَ حَنايا جُمجُمَتي، لكن ذلكَ السؤالَ الأوحدَ الذي استأجرَ ذِهني قد تغيَّر، فأصبَح: " متى العودة؟ " تأتيني نفسُ الاجابةِ منَ الرب، شَرائِحُ الصَمت المَغومسةِ في لجاجٍ منَ اللايَقين.

سعيتُ إلى أن أعثُرَ على الإجاباتِ على صفحاتٍ مَلغومةٍ بالحُروف، بالكَلِماتِ المُبَعثَرةِ الواجِفة. كلماتي المُندَفِعة لغَزوِ الأسطُر، كلماتي التي ما تَزالُ تندَلِق، تندَلِق... كدِماءٍ مَصبوبةٍ مِن جُرحٍ عَميقٍ طازَج. تلك الكلمات هي وَسيلةٌ تَعبيريةٌ تَسعى لإقامةِ العَدالةِ بينَ الضعفِ و القوة، بينَ الضَعضَعةِ و الصَلابة. لجأتُ إلى الأوراقِ و الأقلام، و خَطَطتُ خيوطًا من حِبرٍ تُرشِدُني إلى الإجابات، لكنَّها كانت تُفضي بي إلى الَضياع، إلى مزيدٍ منَ الأين.

جلَستُ أحَدِّجُ حُروفي بعُيونٍ غائِرة...

ها هي ذي تَستَلقي هُناك، سوداءُ فاحِمة، أشبهُ بطُيورٍ قد طُمِسَ ريشُها في الليل، طُيورٍ مَشويةٍ على أسياخِ الاغتِراب، حُروفي لم تكُن سِوى طُيورٍ مُهاجِرةٍ أيضًا، تُسافِرُ إلى هناك، إلى وطَني محمولةً على أضاريحِ الورَق و بينَ نُعوشِ الكُتُب.

# بِلا نورٍ و لا أمان

أحيانًا يَروقُ لي إطفاءُ نورِ غُرفَتي، فقط لأتَذوقَ شيئًا مِن لذّةِ الوطَن، لأتَقَوقَعَ في عَبائةِ الظَلامِ المُفتَرِشةِ على كل شيء. رأتني أمي أجلسُ وحدي بينَ أذرُعِ السَوادِ المُمتَدّة، فسألَتني باستغراب: " ماذا تفعلين؟ لماذا تجلسينَ بِلا نورٍ في غُرفَتِك؟ "

تمَدَّدَت على شِدقيَّ ابتِسامةٌ لم تَرَها، و أجَبت: " أرَدتُ أن أجرِّبَ انقِطاعَ الكَهرباء " وَدِدتُ أن ألعَبَ دورَ المواطِنِ و لو لدَقائِقَ مَعدودة، لكنَّ تلكَ التَجربةَ لم تكُن سِوى خُدعةٍ حاوَلتُ مِرارًا تَصديقَها، لكن لم تكُن تلكَ بِلادي، لم أشعُر بأيةِ ضحِكاتٍ مُجَلجَلة، و لا صيحاتٍ تقول: " انقطعَ التيارُ الكهرَبائي! " لم أشعُر بألحِفةٍ منَ الأنفاسِ الدافِئةِ حولي، لم أشعُر بأحضانِهِم، لم تكُن غُرفَتي سِوى وطنًا مُقَلَّدًا... لا يَنثُرُ فيها النورُ أشرِطَتَه، و لا يَسودُ فيها الأمان...

كانت مُجرَّدَ مُحاولةٍ لعيشِ ماضٍ جميل، لحَشرِ قليلٍ من ذلك الماضي عُنوةً بينَ أيامِ حاضِري. لكنَّ الأيامَ القديمةَ لن تُكَرِّرَ نفسها، كما أنَّ غُرفَتي الصغيرةَ لن تُصبِحَ عِراقًا أبدًا.

# أزِقَّتي

إن كنتَ تبحثُ عن ذاكَ الجسَد فستَجِدهُ مُنزَوٍ في رُكنٍ ما، بينَ الأشياءِ المُلقاةِ القديمة، بينَ القِطَعِ التي أصبحَت أثَريةً بسببِ تَراكُمِ السنينِ فوقَها، تُعجِبُني كثيرًا الأشياءُ المَنسية، الأشياءُ التي انتَهَت صَلاحيةُ استِعمالِها و أصبحَت مِن مُمتَلَكاتِ الرُكام. ستَجِدُني أقلبُها، أتَفَحَّصُها بعنايةٍ فائِقة، كأنَّها قِطعةٌ من ذاتي التي صُنِعَت قديمًا، فكُل زاويةٍ خاليةٍ من وَطئِ الأقدامِ هي في نظَري مُتحَفٌ مُصَغر، مُتحفًا تَعرِضُ فيهِ المَساحاتُ نفسَها بكبرياء.

أما إذا أرَدتَ العُثورَ على روحي، فلا أستطيعُ إخبارَكَ أينَ تجِدُها، فأنا نفسي لا أعلمُ أينَ تكونُ في مثلِ هذهِ الساعة، لا أعلمُ إلى أينَ تأبق. ربما ترَكتُها في كتابٍ أو بينَ سُطورِ رواية، لتُذَكِّرَني بمكانِ توَقُّفِ حياتي الأخرى. ربما انحشَرَت بينَ بيتَي قصيدةٍ للجَواهري، أو لبدر شاكر السياب، أو لأيليا أبو ماضي. أحيانًا تهربُ من هذا العالمِ الضيقِ و تندَسُّ بينَ أوتارِ إحدى الآلاتِ الموسيقية، لتعيشَ مع النغَماتِ عالمًا نزعَ عنهُ حُدوده، عالمًا يَمتَدُّ إلى ما لا نِهاية، مُلامِسًا بموسيقاهُ كل خُطوطِ الأفق. ربما تنسَلُّ الروحُ كخُيوطٍ لا مَرئيةٍ من ثُقوبِ نايٍ قديم. الروحُ دائمًا ما تَزِجُّ بنَفسِها في أماكِنَ تَراها العُيونُ ضيقة، إلا أنها تَفوقُ هذهِ الدُنيا اتساعًا، تقبَعُ في عالمٍ أقربَ إلى السَرمَديةِ و الخُلود، في عالمٍ لا يتَقيَّدُ بمَقاييسِ الوقتِ و المَسافات، لا وُجودَ فيهِ للدَقائقِ أو الساعات، أو حتى العُقود. تَسكنُ أرواحُنا حيثُ يتَبَلوَرُ الفنُّ بألوانه، ذلك الفنُّ الحُر العاري عنِ المَقاييس، الهاربُ مِن مَناكِبِ المنطِقِ إلى مَنافي العَشوائيةِ الفاتِنة.

# نُضجٌ غيرُ مُرَحبٍ به

أصبحَ الصَمتُ المُمتَدُّ بذِراعهِ يُلجِمُ عَفويَتي، يُخرِسُ كثيرًا منَ الكلماتِ المُتَقافِزةِ عن ذلك اللِسان. سكنَ الكلامُ و صارَ أفواجًا منَ الحُروفِ المَشلولةِ المُضطَجِعةِ داخلَ ثَغري. رَدَعتُ بعضَ رُدودِ أفعالي، بينما ابتَلَعتُ الأخرى، فقد باتَت تلكَ الرُدود كالعَورة، لا تخرجُ إلا بحِساب. حتى الضَحِكات تَبَرَّعَت بصُدوحِها و صَخَبِها لألسِنةِ الراشِدين، و باتَت مُجرَّدَ قهقَهاتٍ خافِتةٍ مُتَّزِنةٍ تنطَلِقُ على دُفعات، مجرَّدَ سَلاسِلَ من حُروفِ الهاءِ المُتَمَهلة الجاثِمةِ كصوتِ البحرِ عندما يَنتَزِعُ الربُّ هَيَجانه.

رسَمَ المُجتمَعُ مُخَطَّطاتهِ على مَساراتِ دِماغي، على تَحَرُّكاتي، على كلِّ شيءٍ صادرٍ منّي، و أصدَرَ أحكامهُ التَعَسُّفيةَ على الأفعالِ قبلَ حُدوثِها، ألحَقَ كلَّ فعلٍ بشَقيقَتهِ العاقِبة. كلما رأيتُني أكبُر أراهُم يَربِطونَ تَمَرُّدي بأوتادِ القَواعدِ المَوروثة. أصبحتُ أرضَخُ كثيرًا، أستَمِعُ كثيرًا، ثم أؤدّي رَقصةَ هزِّ الرؤوس دونَ أن أنبِس. ظلَّت الخَواطِرُ حَبيسةً بين زِنزانةِ النفسِ و العَقل، تتَخَبَّطُ حُدودَ الأديمِ العازِل دونَ أن تعثُرَ على ثُقبِ البَوح. أخَذتُ أمَشّطُ المَشاعرَ الجَيّاشةَ داخِلي، كل الأفكارِ التي وَدِدتُ أن أطرَحَها على العالمِ على أطباقٍ مُذَهَّبةٍ بالابداع، تَستَقِرُّ الآنَ في قارورةِ الكِتمان.

ذلكَ القالَبُ الوَخيمُ الذي لَفَفتُ بهِ ذاتي، أو بالأحرى، الذي دثَّرَتني بهِ قَبضةُ الأعراف. قالبٌ من التَبَلّدِ المُفتَعَل، أشبهُ بجِلدِ أفعى، تلك القُشورُ التي تُظهِرُ للعالمِ أننا تَماثيلٌ حَديديةٌ مُسَجّاةٌ برَفيفِ القِصدير، أرمي بنَفسي دائمًا في تلك الصورةِ المُؤطَّرةِ باللَباقةِ الزائدة، كابِحةً جِماحَ كل شيء، و مُظهِرةً هيئَتي المُسَوَّرةَ باللاشيء. لا أصَدِّرِ إلى

عُيونِ العالمِ سِوى وُجوهٍ خَشَبية، و عَواصِفَ من صَقيعِ بُرودي. ثم أسمعُهُم يقولونَ بإعجاب:

" لقد نضِجتِ كثيرًا... "

يقولونَ تلكَ الكلِماتِ و كأنهُم يَرقُصونَ في جَنازةِ طِفلة.

# حالةُ بَعثَرة

نواةُ نَفسي جَذوةٌ مُنطَفِئة، و ثَورةٌ مَلفوفةٌ بالعَجاج...

في أعماقي يَضطَجِعُ ذلك اللاشيء فارِشًا لامُبالاتِه،

بينما تَستَعِرُ ألسِنةُ المشاعرِ المُلتَهِبةِ و شَئابيبُ الخَواطِر،

أحيانًا تَعتَريني رغبةٌ عارِمةٌ في ارتِداءِ روحين، في ابتِلاعِ ذاتين...

في التَبَدُّلِ كما تُبَدِّلُ سماءُ اللهِ أثوابَها،

ما بينَ شفقٍ و فجرٍ و ضُحىً، و ظُهرٍ و غُروبٍ و ليلٍ بَهيم، ثم يأتي الغسَق.

في داخِلي يَعتَلِجُ كل ما هو فائِضٌ عن الحاجة، الكثيرُ الكثير...

و في نفسِ الذاتِ لا يقبَعُ شيءٌ سوى الخَواء،

أحيانًا تَهُبُّ عَواصِفُ لا أفهمُ مَغزاها، عَواصِفُ تُسيّرُ جَوارِحي.

أطرافٌ و أنامِلُ تَكاثَرَت فيها خَلايا الوجَف،

تدفَعُني لانتِشالِ أيِّ شيءٍ قريبٍ مني، تنقَبِضُ دونَ إرادَتي، تنطَوي بافتِراسٍ يُداخلهُ الرَعاش و يُلِمُّ بي الشَبَقُ للتَحطيم.

كم أريدُ أن أحَطِّمَ اسطواناتِ الصَمتِ الموَزَّعةِ بالتَساوي على قِطعِ الأثاث

و في ذاتِ الآنِ لا أشعرُ بشيء، فالعالَمُ حولي كإبرةٍ غُرِسَت في كُلّي، و سحبَت آخرَ قطرةٍ من آخرِ شُعور.

نعم... العالمُ بالنِسبةِ إلَي إبرةٌ تَوَلَّت مَهَمّةَ إفراغي من نَفسي.

عندما تَغدو الأعماقُ مَقَرّاتٍ للمُناوَشاتِ ما بينَ النَقائِض، كبحرٍ اجتمعَ فيهِ المَدُّ و الجَزرُ فحارَ أيهُما يُطيع. أو لُعبةُ تَجاذُبِ الشمسِ ما بينَ شرقٍ و غَرب.

عندما تَجيءُ تلكَ اللحظة، لحظةٌ واحدةٌ هي... لا أكثر!

لحظةُ مؤاخاةٍ بينَ الضعفِ و القوة، لحظةَ يصطَفّانِ جنبًا إلى جنبٍ كأنَّهُما واحد.

و في جوفِ ذلك الشُعورِ الواحِد، نتَذَبذَبُ نحن...

# نعلمُ عندها أننا نَنضُج

كلما كبِرنا، سقطَت من أفنانِنا الخَريفيةِ أوراقٌ كثيرةٌ فائضةٌ عن الحاجة. كلما كبِرنا، استَغنينا عن تفاصيلَ كانت يومًا ما مراكزَ اهتمامِنا و مَرابِضَ أفكارنا. تَتَجلّى أمامنا صورُ السعادة الحقيقية، نراها دونَ تَصحيحٍ و لا تعديل، دونَ الحاجةِ لأزواجِ العُوَيناتِ المُضَخِّمةِ للأمور. نُدرِكُ أن المَسَرّةَ تنصَبُّ فقط من مَنهَلِ البساطة. نَستَغني عن بَذَخِ الأشخاصِ و ترَفِ العلاقات، و نبدأُ بتَفضيلِ المِمحاةِ على القلَم. كلما كبِرنا و تَمَدَّدَت أعمارُنا انخفَضَت أسقفُ التوَقُّعات، و خَفَّت وطأةُ الصدَماتِ المُرتَطِمةِ بقلوبنا. عندما نَنضجُ تستَقِرُّ كل توقُّعاتِنا داخلَ أُطُرِ اللامُتَوَقَّع، نَمحَقُ الضَماناتِ مُدرِكينَ أن هذهِ الحياةَ كطفلةٍ تسيرُ بعفويةٍ و عَشوائية، فلا يجوزُ أن نرسمَ لمُجرَياتِها مساراتٍ مُحدَّدة.

هذه الحياةُ مرأةٌ خادِجٌ تُلقي بأبنائِها بين أكفانِ النُضجِ مُبَكِّرًا، مواريةً البَرائةَ تحت أترِبةِ الزمن. عندما ننضجُ نُدركُ أن الشيبَ ليسَ مجرَّدَ شُعيراتٍ بيضاء أو رَماديةَ اللون، بقدرِ ما هو خصُلاتٌ منَ التَخَلّي و خُيوطٌ من الاستغناء. عندما نَصرِفُ اهتمامَنا عن البَرايا و المَخلوقات، مُتَوَجِّهينَ بكُلّيتِنا إلى الخالق، إلى جاعلِ كل شيءٍ في كينونَتهِ الحالية، عندما نُعَلِّقُ آمالَنا على قُدرةِ الذاتِ الألهيةِ و نَكُفُّ عن توزيعِ الأيادي المُمتَدّةِ إلى أشباهِنا البشَر، نعلمُ عندها أننا نَنضُج.

# سَراب

كلَّما اقترَبنا من تلك المَخاوِف، لا نجدُ شيئًا سِوى اللاشيء، سِوى سرابٍ كانَ يُحَلِّقُ في مُخيلاتِنا الساذجة. مَخاوِفُنا العقَيمةُ تَقودُنا الى حَجزِ هَوامِشِ الحياة، إلى استوطانِ القَواقِعِ المَعزولةِ عن العالم. الرُكوعُ أمامَ المَخاوِفِ يعني أننا تعَهَّدنا أمامَ الحياة بالفَشَلِ الذَريع، أننا وقَّعنا عقدَ شِراءِ الهاوية. فلماذا نخاف؟!

نحنُ مَخلوقاتٌ بارِعةٌ في رسمِ السوداوية و نحتِ الخوف، نهوى حياكةَ الألمِ حتى لو لم تَكُن في حوزتِنا خُيوط.

# أحلامٌ مُسافِرة

عندما كنتُ صغيرًا، كنتُ أحكي لجَدي عن أحلامي التي أتمنى تحقيقَها. أثَرثِرُ في أذُنيهِ ببَرائةِ طِفل، بِرَعشةِ حَماسٍ تُخَدِّجُ نبرةَ صوتي. فقالَ لي عِبارةً لم أفهَمها حينئذٍ، لكنها عَلِقَت بينَ عِظامِ جُمجُمَتي.

" يا صغيري، الأحلامُ هنا تلتَصِقُ بالوَسائِد. "

و عندما سألتهُ عن معنى تلكَ الكلماتِ المُبهَمةِ أجابني قائِلًا:

" لأنكَ تعيشُ هنا، على أرضٍ لا تَبرَحُ الأحلامُ فيها أسطُحَ الوَسائِد. أنتَ عِراقيٌ يا ولَدي. ببَساطةٍ هذا ما يجعلُ حُلمَكَ يَلتَصِقُ بوِسادَتِك. "

علَت الدَهشةُ وَجهي، و هروَلتُ مُسرِعًا إلى غُرفتي، كانت الوِسادةُ مَلساءَ كما عَهِدتُها، كانت بيضاءَ لا يَشوبُ بَياضَها أي حُلمٍ مُلتَصِق. بَقيتُ أنا مُلتَصِقًا بحَيرَتي كالعَلَق.

بعدَ سنوات، و أنا أقِفُ أمامَ بابِ الطائرةِ في سِربِ المُهاجِرين، بدَرَت إلى ذِهني مَقولتَهُ التي حنَّطَتها ذاكِرَتي، و عرَفتُ حينَها أنني قد استَعَدتُ أحلامي، أدرَكتُ أنني أحمِلُ أحلامي في حَقيبةِ السَفَر، و سأغرِسُها في الواقعِ و أسقيها بشَلالِ آلامي. تلك الأحلامُ التي كَبُرَت معي، و التي ترَعرَعَت في رِحابِ وطني، انتَزَعتُها من وِسادَتي لأقدِّمَها إلى الله كالقَرابين على طبَقٍ منَ الحَسرة.

و ظلّت الوِسادةُ خالية، دونَ أحلامٍ مُلتَصِقة، و دونَ رأس.

# مُخَلَّفلتُ الرَحيل

لم يبقَ منهُم سِوى أشكالٍ مُعَلَّقةٍ على الحائط، وُجوهٌ تنطِقُ بابتِساماتٍ مُستَديمةٍ حنَّطَها الجُمودُ الأبَدي. عُيونُهُم تَرمُقُ الأحياءَ حولهُم بنظَراتٍ مُستَفَزّة. يستَقِرّونَ داخلَ حُدود، خاضِعينَ لسُلطةِ إطارٍ صورة.

الصورُ ما هي إلا أشكالٌ جامِدةٌ وسطَ مُحيطِ المُتَغَيرات. بَقايا لأشخاصٍ و فُتاتٌ منَ الذِكرياتِ نَنثُرهُ على أفئِدَتِنا المسكينة كرَمادٍ يُؤَجّجُ نارَ وحشَتِنا. الصورةُ توهِمُنا لوَهلةٍ أنهم عادوا، أنهم يُطِلّونَ علينا من تلكَ النافِذةِ الصَغيرة، يُحَيّوننا بابتِساماتِهِم التي شُيِّدَت في دَواخلِنا، تُعيدُ لنا تلك الصورُ شَرائطَ ذكرياتِنا معهُم على هيئةِ جُسورٍ واصِلةٍ ما بينَ نظَراتِنا. لا نجدُ في أعيُنِهِم المُسَمَّرةِ سِوى أعواد ثِقاب، تَشُبُّ حَرائقُ الشوقِ في ثَنايانا فنُخمِدُها بماءِ الدُموع. و هكذا نظَل...

الصورُ هيَ آخِرُ قِطعةٍ أنعمَ بها الماضي على العالم، مُنَبِّهاتٌ توقِظُ في أنفُسِنا تنَهداتٍ كثيرةً عَطشى للدُموع. إن الصورَ آبارٌ نُسقِطُ فيها أفئِدَتَنا و بعضَ الأجزاءِ من أرواحِنا، فتُبحِرُ تلك القُلوبُ على مَساراتِ وُجوهُهِم، و بينَ ضِفَّتي آذانِهِم عبرَ جَداولِ الابتِسامات. نرى داخلَ حدَقاتِهِم شُموسَنا التي أفلَت إلى الأبَد. تُعزَفُ أصواتُهُم على أوتارِ الذاكِرة، نتَذَكرُ كلماتِهِم، رَنينَ ضَحِكاتِهِم، نتَذَكرُ كل شيء...

تنجحُ الصورُ في أداءِ عمَلِها.

# دَرسٌ على سَبّورةِ الحياة

لم تعُد تُهِمُّني أحكامُ البشَر، فالحياةُ ليسَت مَحكَمةً و آرائهُم ليسَت حِبالَ مَشانِق. لقد حرَّرَتني الأيامُ من أغلالِهِم، شفَتني عَقاقيرُ الكَرامةِ مِن مُتَلازِمةِ الاحتياج. لم أعُد أرمي بصِنّاراتِ التَضَرُّعِ لأصطادَ بعضَ المَديحِ من أفواهِهِم. لم أعُد أعَكِّرُ صَفوَ أعماقي بذِكراهُم. لم أعُد أغوصُ في أحاديثِهِم، و لم تَعُد تَروقُني لُعبةُ قراءةِ ما بينَ الكلمات. لم أعُد أنسِجُ التَفسيراتِ لكل صغيرةٍ و كبيرة، و لم أعُد أُمَزّقُ كَرامَتي لأخيطَ لهُم المُبَرّرات. لم أعُد أبحثُ خلفَ كواليسِ الأحداث، و لا أنبِشُ في النَوايا المَضمورةِ وراءَ سَتائرِ المَواقِف. شيئًا فشيئًا هدأَت أمواجُ الفُضول، و طفَت قَوارِبي على أسطُحِ الأمور.

الخُلاصةُ هي أنني عرَفتُ أن التَغافُلَ و الترَفُّعُ عن سَفاسِفِ الأمور أركانٌ مهِمةٌ من طُقوسِ تَقديسِ الذات.

**أتَمنى أن تُدرِكَ هذهِ الحَقيقةَ مُبَكِّرًا**

**حتى تتَسَنى لكَ فُرصةُ العَيش...**

# مِلعَقةُ نِسيان

انكَمَشَت شَفَتَيّها حينَما قرَأَت رسالتَهُ الأخيرة، كأنَّ الكَمَدَ ضرَبَ على عينيها فانفَجَرَتا كيَنابيعِ الدَمع. تَسابَقَت العبَراتُ لتتَزَحلَقَ على مُنحَنَياتِ وَجنَتَيها. تُحاولُ في أوجِ جُمودِها أن تبحثَ عن أشلاءِ ذلكَ القلبِ المُحَطَّم، عن تلك القِطَعِ الضائعةِ وسطَ دَيجورِ المستقبلِ الذي ادْلَهَمَّ على حين غرّة. أخذَت تنبّشُ في كلماتهِ عَلَّها تقتَفي أثَرًا لخيطِ الوِصالِ أو بَصيصِ الصُلح، كانت تَسعى لتَلَمُّسِ كلمةٍ رقيقةٍ وسطَ صمتهِ المُدَبَّب، باحِثةً عن شَرارةِ شوقٍ في زَمهَريرِ كلماته، لكن لا شيء...

قرَّرَ فؤادُها احتِضانَ تلك الصَفعة، اختبأَت داخلَ يَرَقانةِ الكبرياء، و بادرَت طعَناتهِ بتِرسِ الصَمت، كأنها حِفنةُ فُتاتٍ أو كُتلةٌ مُخمَليّةٌ داخلَ صندوقٍ حَديدي. رمَت ذلك الجِهازَ اللعينَ بعيدًا، كأنها قطَعَت آخرَ شريانٍ مُتَّصلٍ به. أمسكَت بكَرامَتِها بقوة، تَكَوَّرَت على حُزنِها و تناولَت قارورةَ دَواءٍ مَوضوعةٍ بجانبِ سريرِها. قارورةٌ صغيرةٌ كُتِبَ عليها حُروفُ كلمة (نِسيان).

# في حَوزةِ الصُدَف

إن قِصَصَ المُحِبّينَ تَتَفَرَّعُ إلى نِهاياتٍ شَتى. الحُب، الصَداقة، أو حتى تلكَ العَلاقاتُ العابِرةُ التي نَستَقي منها شيئًا ما، تلك العَلاقاتُ التي تُشبِهُ سُطورًا قَصيرةً في رواياتِ حياتِنا. يُمكِنُ لأي موقِفٍ أن يُلقي بنَفسِهِ كنُقطةٍ على السَطر، أو أن يكونَ الغَلوةَ الأخيرةَ التي يَعقُبُها إطفاءُ العلاقة. يُمكِنُ لسَلاسِلِ اللِقائاتِ المُتَكَرِّرةِ أن تُختَمَ بكلمةٍ قاسية، بتَنهيدةٍ أشبَهَ بشَهقةٍ تأهُّبًا للتَسابُقِ نحوَ خُطوطِ النِهاية، نحوَ الفِراق. ربما تنتَهي العَلاقاتُ بنَظرةٍ ناطِقةٍ بكل شيء، ثم يَخطو الاثنانُ على مُفتَرَقِ الطُرُق، كل منهُما مُيَمِّمًا قلبهُ صوبَ الاتجاهِ المُعاكِس. يَخبو شيئًا فَشيئًا وَهَجُ الاشتياق، يَنضَبُ مَعينُ العُيونِ الباكية، فلا تبقى في الذِكرى إلا حِفنةٌ منَ المَلامِح.

يَنغَمِسُ كلٌ منهما في حياته، مُجبِرًا نفسهُ على التَغَلغُلِ في علاقاتٍ أخرى، علاقاتٍ يَحشو بها فَجوَتهُ الشَبيهةَ بثُقبِ الأسود، كأنما ليَردِمَ بها حُفرةً مَليئةً بالتَساؤلات: " هل مِن عودة؟ " تُمحى المَواعيدُ مُفسِحةً المَجالَ للصُدَف، تُصبِحُ لحَظاتُ العُمرِ أوراقًا تَتَقاذَفُها أيادي تلك الصُدَف. إن الصُدفةَ غمازةٌ في وجهِ القدَر، وادٍ سَحيقٍ يَستَغيثُ في قاعهِ الجَمال. الصُدفةُ هي تلك الدقائق المُتَمَرِّدة التي تَحيدُ عن مَسارِ أيامنا الطَبيعية، هي لِقاءٌ مُفاجِئٌ يُلَطِّخُ لوحاتِ أيامِنا التي رسَمناها بحِرص، سُطولٌ مِنَ الرَعاشِ تندَلِقُ علينا فجأةً، ماحيةً لبُرهةٍ مَناهِجَ التَناسي و سُنَنَ التَباعُد. الصُدَفُ ما هي سِوى مُقَدماتٍ لمَواكِبِ الذكرَياتِ التي تَمرُّ بينَ الحينِ و الآخر، على أرصِفةٍ بلَّطناها بالنِسيان. ثم نَمشي، نُكمِلُ طَريقَينا لتَنقَضي الصُدفة، تارِكةً نُتوءاتِها البارِزةَ من تحتِ ضِماداتِ القُلوب.

# نبتة

تُثيرُ غيرَتي باستِمرار، تلكَ النَبتةُ التي تُعانِقُ أحدَ زَوايا غُرفَتي...

هيَ مِثلي، صِناعيةٌ بعيدةٌ نوعًا ما عنِ الفِطرة، غيرُ مُرَحِّبةٍ بالتَغيير المُباغِت. تُعاني من ذلك الاخضِرارِ السَرمَدي الذي يَطبَعُ نفسهُ على أوراقِها و أغصانِها بتَفاني. أكثرُ ما يدفَعُني إلى حسَدِها هو أنها تفتحُ نفسَها لهذا العالمِ و لا تعرِفُ سياسةَ التَقَوقُع، تَمُدُّ أوراقَها في كل اتِجاهاتِه، و تَستَفِزُّ الهَواءَ من حولِها بحَرَكاتِ التَمايُلِ و الغَنج، تمامًا كشَظايا الضياءِ المُتَفَرِّقةِ مِن قُرصِ الشَمس. كم أتَمَنّى أن أكونَها و لو لساعاتٍ قَليلة، أن أمتَدَّ بكل فُروعي القليلة، أن أتَفَتَّح مُظهِرةً ذاتي الكامِلة على بِساطِ الحقيقة. لكن هذا غيرُ مُمكنٍ في عالمِ البَشَر، إذ أن بعضَ وُريقاتِ الذاتِ يجبُ أن تظَلَّ مَطويّةً مهما حدَث، مُتَواريةً وراءَ طبَقاتٍ منَ الروح.

# انتِقامٌ منَ العالَم

أحيانًا قد تكتَنِفُنا رغبةٌ بالانتِقام، رغبةٌ أعمَقُ من قيعانِ المُحيطات، تَجرِفُنا و تُلقي بِنا في مَلَكوتِها. رغبةٌ تدفَعُنا دومًا إلى ترديدِ تعويذةٍ تُسَمّى القَرار. نتَّخِذُ قرارًا على قَدرٍ كبيرٍ منَ الأهَمية، قَرارًا سيَعصِفُ بأشرِعَتِنا إلى الاتِجاهِ المُعاكِس. نُقَرّرُ أن نُجَرّبَ الارتِقاءَ بأنفُسِنا، أن نَطفَحَ بالنَجاحاتِ على هذهِ الأرض، أن نَرشُقَ أحلامنا في مِحرابِ الواقِع، نُقَرّرُ أن نُحيلَ الأماني إلى أحداث. النَجاحُ هو رَكلةٌ قَويةٌ نُسَدِدُها إلى مؤَخرةِ الحَياة. أن ننجَحَ يَعني أن نأخُذَ بثـأرِنا منَ الظُروف، أن نُلَملِمَ ذَواتَنا التي طَحَنَتها الأيامُ الوَبيلة، يَعني أن نَحلِبَ المَصاعِبَ فتَنسابُ منها انتِصاراتٌ ساحِقة. أن ننجَحَ يعني أن نُصبِحَ عِبادَ اللحَظات، أن نَطوفَ بأذهانِنا حولَ عَقارِبِ الساعة، أن نَمتَشِقَ الدَقائِقَ و الثَواني و نصنَعَ منها بصماتٍ تَدُلُّ على وُجودِنا. النَجاحُ يعني الهُروبَ من زَنازينِ الاعتِياديةِ التي نُزجُ فيها مُنذُ لحظةِ وِلادَتِنا. النَجاحُ ليسَ مُجَردَ عَرضٍ نؤَدّيهِ على مَسارِحِ الحياة، ليسَ رَقصةً يؤدّيها المَرءُ على المَلئِ لتَنهالَ عليهِ أوراقُ القيمة، هوَ نَشوةٌ تُخمِدُ شَهوةَ الانتِقام، لذّةٌ تَعتَرينا عندَ تَمزيقِ العَراقيلِ و تَهشيمِ المُعَوقات.

أن ننجَحَ يعني أن نَنتَقِمَ منَ البُطونِ التي قَطَفَتنا مِن ذاكَ الأثيرِ المُسالِم، أن نَصفَعَ القدَرَ المُنقَضَّ علينا بكل قوَتِه. النجاح خيرُ سِلاحٍ للانتِقام...

# علَمٌ فقَدَ مَلامِحَه

بينما كنتُ أسيرُ في طُرُقاتِهِم، أسمعُ ضَحِكاتِهِم المُتَداخِلةَ بذاكَ الشَكلِ المُستَفز لنفسي، آهاتِهِم المَمزوجةِ بكَلامهِم الأعجَمي، وسطَ تلك الفوضى لمَحتُ فوقَ خط الأفُقِ قُماشةً مُستَطيلةَ الشكلِ تُلَوحُ في الفَضاء، لقد زادَت الفوضى فَوضى!

كانت تتَراقَصُ على إيقاعاتِ الطَرقِ التي يُحدِثُها النَسيمُ في أذُني. دَنَوتُ منها حتى تبَيَّنتُ أنهُ علَم، لكنهُ كانَ غريبًا عن ذاكِرَتي، مَطرودًا مَنفيًا من ثَنايا عَقلي. كنتُ أراهُ خِرقةً مُلونة، لا أكثَر! مُجَردَ رِداءٍ تتَلَفَّعُ بهِ جِنسيةٌ ما، أرضٌ ما، دولةٌ ما. علَمٌ حَقيرٌ يُذَكِّرُني باستِمرارٍ أنني لم أعُد في وطني، أنني كنتُ يومًا ما ضَحيةً لقَبضةِ الهَواءِ المُنتَشِلةِ المُتَسَلطة، و التي بدورِها ألقَتني على هذهِ الأرضِ الغَريبة، فغَدَوتُ مِثلَ سَطرٍ يَتيمٍ فقدَ أمّهُ القَصيدة. يرتَفِعُ بؤُبَّهةٍ و تَعالي هذا الذي يُسَمّونَهُ علَمَهُم، و تنسَدِلُ فوقهُ جَدائِلُ شمسِهِم. كم أثارَ غَيظي! كأنهُ مُنشَبٌّ عَموديًا في أحشائي لا في الأرض. علَمٌ أضاعَ مَلامِحه، فقدَ حُروفَهُ العربية، علَمٌ لا يُلقي في قلبِ المُغتَرِبِ سِوى حِجارى الندَم.

لطالَما أحسَستُ أن هذا العلَمَ غَريبٌ عني، فما بتتُ أعرفُ مَن المُغتَرِبُ فينا.

# لُعبةُ الاختِباءِ مع القيمة

قد نُدرِكُ مُتَأخِّرًا جدًا أننا لم نَعِش من أجلِنا...

قد نُدرِكُ بعدَ غُضونِ سنواتٍ منَ التَسَكُّعِ بينَ البشَرِ أننا أسقَطنا أنفُسَنا على أحدِ أرصِفةِ حياتِهِم، أننا مَرَّغنا ذَواتَنا في شؤونِهِم و أنفَقنا أرواحَنا كرَشوةٍ لنيلِ رِضاهُم. كنا نبحَثُ عن القيمةِ فوقَ ألسِنَتِهِم و نَستَقيها من بينِ ثُغورِهِم الباسِمة. لطالَما حاوَلنا إحصاءَ تلكَ القيمةِ بالمِكيالِ الخاطِئ، لكننا لم نُلِح و لن نُفلِح. فقيمةُ المَرءِ و مَكانَتُهُ لا تَرتَفِعُ بازديادِ أعدادِ البشَرِ حوله، ولا تَتَضاعَفُ بتَجَمهُرِ أزواجِ الأيادي المُصَفقة، أو باكتِظاظِ العُيونِ المُحَملِقةِ به. لكننا لم نُدرِك ذلك إلا مُتأخرًا...

كنا نَرمي بطُعمِ التَمليقِ لاقتِناصِ كلماتِ المَديحِ منهم، نَفرِشُ لهُم أنفُسِنا ليَطأوها بمَصالِحِهم التي لا تنتَهي، كُنا نَسعى كالقَطيعِ إلى حيثُما توجَدُ أسوارٌ منَ الحَدَقاتِ الواسِعةِ و الحواجِبِ المَرفوعة. استِنادًا إلى قَواعدِ النَحوِ التي اختَرَعناها، كانت جميعُ الأفعالِ مَفعولةً لأجلِهِم. لطالَما حاوَلنا أن نَشُدَّهُم صوبَنا بحِبالِ الاحتياج، لكن هاتيكَ الحِبالِ ما كانت سِوى حلَقاتٍ تَشنِقُنا ببُطئ. كم أجرَينا مِن عملياتِ استِئصالٍ لذَواتِنا، كم حشَرنا أنفُسَنا في مَطبَعاتِ البَشَر و خرَجنا على هيئةِ نُسَخٍ من غيرِنا. كنا نُعَلِّقُ حَقائِقَنا على الشَمّاعاتِ قبلَ مُغادَرةِ بُيوتِنا. مارَسنا هذهِ البِدَعَ لسنَواتٍ طِوال...

حتى عرَفنا أخيرًا أن القيمةَ كانَت تُنادينا مِن على سَطحِ المِرآة، تُلوحُ لنا، لكن ضَبابَ الآخرينَ كانَ قد غَشيَ تلكَ الذات المُرتَسِمةَ خلفَ الزُجاج.

# بُعد

وَحيدةٌ... مُنضَمِرةٌ في زاويةٍ مِن زَوايا الكون، كأنني عَصيةٌ على الفَهم، كأنني أعمَقُ من أن أكونَ كائنًا بشَريًا. ذُروَتي مَفقودةٌ في مكانٍ ما بينَ حَنايا تلك الروح. أشعرُ أنني كَيانٌ مِغناطيسيٌ جاذِبٌ لهالاتِ الفَراغ، عَواصِفي رُغمَ شِدَّتِها لا تُلامِسُهُم، لا تَصِلُ إليهِم. هل استَحالَ العالمُ قَطيعًا منَ الصُم فجأة؟ أم أن داخِلي لا يَزعَقُ بما يَكفي؟! أريدُ منَ الكلماتِ أن تكونَ أكثرَ قُدرةً على تَشريحِ الحَقائِق، أريدُها أن تَغدو أكثرَ حِدّة، أشَدَّ اندِفاعًا لاختِراقِ الأشياء، لكنها دائمًا ما تَخذُلُني هي الأخرى... لقد استَنزَفتُها كلها، أفرَغتُها على أوراقيَ المِسكينةِ علَّني أردَعُ ضَراوَتي، علَّني أمسِكُ بِسُنبُكِ السَكينةِ و لو لبُرهةٍ منَ الزَمَن. لكن الأعماقَ العَنيدةَ ما زالَت تتّورًا مَسجورًا لا أعرِفُ سَبيلًا لإطفائِه.

حتى أنتِ يا أمي، حتى أنتِ أصبَحتِ عاجِزةً عن فكِّ طَلاسِمي. حُضنُكِ حينَما أعانِقُه، حتى و إن التَصَقتُ بهِ حد الانصِهار، فإنني لا أزالُ أحِسُّ أن بيني و بينَكِ العالمُ برُمَّته. إنني أكابِدُ تَباريحَ البُعد، ذلكَ البُعدُ الذي أرسَلَ بَناتهِ المَسافات لتَعتَرِضَ طَريقي الى نفسي. تُرى هل يوجدُ في هذهِ الدُنيا شيءٌ أقدَرُ على التَعبيرِ منَ التَعبير؟! شيئًا أكثرُ شُمولًا لمَجَرّةِ الغَوغاءِ في داخِلي؟!

# مُبتَدأٌ بلا رَفع

إنَّ رَفعَ المُبتَدأِ لا يَقبَعُ سِوى بينَ دفّاتِ الكُتُب، مُجرَّدُ حَقيقةٍ نحَويةٍ خلَّدَتها الصَفَحات. أما هذه الحياة فلها قولٌ آخر، في حياتِنا تكونُ أغلَبُ البِداياتِ مَكسورةً ليس لها منَ الرَفعِ نَصيب. كل بِدايةٍ تُسَطِّرُ الخَيباتِ على سِجِلّاتِ تَواريخِنا. قد تَمتَدُّ البِداياتُ لتُصبِحَ سنَواتٍ مَكسوةٍ باللأيِ و الكِفاح، قد نتَعَفنُ في أرحامِها...

نَمكُثُ خلفَ الكَواليسِ في كَنَفِ الليالي الدَهماء، حيثُ رُقَعُ الظَلامِ المُخاطةِ بخُيوطٍ منَ النورِ المُتَدَلّي من مِصباحٍ وحيد. نَستَقي مَزيدًا منَ اليَقَظةِ من فَناجينِ القَهوة، و نَدُسُّ رؤوسَنا بينَ الكُتُبِ و المُجَلَّدات. تَتَراقَصُ تلكَ العُيونُ المُتعَبةُ على السُطورِ في حفلةٍ صامِتة، تَزحَفُ على إيقاعِ خطواتِ عَقرَبِ الساعة. هكذا تكونُ بِداياتُ الحياة، قد نَقضيها في التَسَكُّعِ بينَ الهَوامِش، أو في اللُهاثِ وراءَ فُرصةٍ واحدةٍ تُمَثِّلُ مَناصَنا منَ الفشَل. قد تَتَهَشَّمُ أحلامُنا مِرارًا، قد تَتَلاعَبُ الأقدارُ بأمانينا كوُريقاتٍ هَشةٍ في مَهَب الريح. سنَتَعَثَّرُ ببَعضِ الكلماتِ المُحبِطة، أو الجارِحةِ أحيانًا.

لكن البِدايات ليسَت و لم تكُن يومًا مِنهاجَ الحياةِ الدائِمِ أو نَسَقَها الأبَدي، ليسَت أكثرَ مِن مَراحِلَ مَصيرُها الانقِضاء، مَصيرُها أن تسقُطَ في آبارِ الماضي و أن تَغدو مُجَرَّدَ سيرٍ لنَلوكَ بها. كل بِدايةٍ وَعِرةٍ مَصيرُها أن تَستَقيمَ بفِعلِ مِطرَقةِ الدأب. كل بِدايةٍ شَحَذنا فيها إصرارَنا ستُفضي حَتمًا إلى نِهايةٍ مُثمِرة. الانكِساراتُ المُتَوالية ستَصنعُ الجُلودَ الصُلبة، تلكَ الظُهورُ المُحدَودِبةَ ستَغدو شامِخة، و ستَقدَحُ العُيونُ بِشَراراتِ النَصرِ بعد أن قضَت أيامًا طِوال مُتشِحةً بالسَواد.

ما البِداياتُ إلا يَراقاتٍ مُتَحَجِّرة، نتَحَرَّرُ منها مُرتَمينَ في أحضانِ مُستَقبلٍ مَفتوحٍ على مِصراعَيه. بعدَ كل بِدايةٍ وَخيمةٍ ترفَعُنا الأيامُ على راحاتِ التمَيز، و نَمتَطي نُجومَ السَماء مُنطَلِقينَ صوبَ المَرام.

# تُرى

تُرى لماذا تَضيع؟

مَشاعِرُنا المُخَبَّأةُ لذلكَ المِثالي.

وزَّعناها بسَخاءٍ و جلَسنا مُتَحَسِّرين،

فباتَت مُهَشَّمةً إثرَ مخالِبِ الحمقى.

نَلمُّ فُتاتَ الكَرامةِ و نسأل

كيفَ أصبَحنا أجزاءً مُسَيَّرةً بأمرِ قلوبِنا؟

نُخَبِّئُ ما تَبَقّى منها في قارورةِ أملٍ ضيقة

فمتى يَجيءُ ذلكَ المِثالي؟

**مُجَرَّدُ تَساؤلاتٍ عَقيمة...**

# بِسَلاسة

إنهُ شيءٌ طبيعيٌ ألّا تستيقظَ على رسالةٍ من أحدِهم، أو ألّا تُزعجُكَ اتصالاتٌ مُتَتابِعة. شيءٌ طبيعيٌ أن يُحاوِطَ الصمتُ أيامكَ و أن يزخَرَ هاتفُكَ بالمِساحاتِ الفارِغة. يجبُ أن تدرِكَ أن الحياةَ الهادئةَ هي من أبرزِ دَلالاتِ النُضج. من الطَبيعي أن تُراقِصَ ذاتكَ في آنِ الفرَحِ و أن تَحتَويها في ساعاتِ الكَمَد. ليسَ عيبًا أن تكونَ صديقَ نفسِك، هكذا تتَذوَّقَ لذّةَ مرورِ الحياةِ ببُطئ، تصيرُ أيامُكَ كأوراقِ الشَجَرِ الهابِطةِ رويدًا رويدًا تحمِلُها هَوادِجُ النَسيم. ليسَ عيبًا أن تهربَ من تَجَمُّعاتِ البَرايا إلى تناولِ رشفاتِ القهوةِ مع نفسِك، أن تسرقَ بعضَ الدقائقِ الخاليةِ من غَوغاءِ البشر. تجلسُ على شُرفةِ الحياةِ و تُحَدِّقُ بمُجرَياتِها، باحِثًا عنك.

الهُدوءُ هديةٌ جميلةٌ لا نُحسِنُ استِغلالها، لا نُحسِنُ تَقشيرَها و إدراكَ ما في داخِلِها من الميزات. عندما تَهجَعَ نُفوسُنا و تَستَكين على تَرانيمٍ من اللاصوت، عندما نُسَوِّرُ القُلوبَ بأغلِفةِ اللاأحَد. عندها لن تتَقاذَفَ الهَواجِسُ ألبابَنا، لن تتَعَكَّرَ دَواخِلُنا بأصنافٍ كثيرةٍ من البشرِ الذينَ أصبحوا في مقبرةِ الماضي، عندها سنَرتَدي طبيعَتَنا بكلِّ فَخر، و سنستَقي نهرًا زُلالًا من السعادةِ الأبدية.

إن كانت السعادةُ تسكنُ النفس، فلا حاجةَ أن نقطِفَها من أفواهِ الأنام.

# رحَلاتٌ عَقيمة

منَ السهلِ على المُغتَرِبين أن يفقِدوا أنفُسَهم في تلكَ المَسافةِ القصيرة، في تلكَ البُقعةِ منَ البَوح، على الدَرَجِ الخَفي ما بينَ القلمِ و الورَقة. منَ السهلِ أن يركَبوا سُفُنَ الحُروف، أن يُجَدِّفوا في مُحيطاتِ الحِبر، و النِقاط تَلعَبُ دائمًا دورَ المَجاديف. يُسافِرُ الفَكرُ إلى مَناكِبَ عَديدة، إلى أراضٍ مُنبَسِطةٍ مُلتَصِقةٍ بصَفَحات، و في النِهايةِ تَقودُهُم خَنادِقُ الخَيالِ الضيقةِ إلى أشباهِ الأوطان.

# أنتَ تَنفَلِق

أن تكونَ المُخطِئَ وسطَ ثَكَناتِ المِثاليين ليسَ بالأمرِ اليَسير، أن تَكونَ محَطَّ الانتِقاداتِ و الإرشاداتِ المُبَطَّنةِ بالتَحقير، أن تَقذِفَ عليكَ السَبّاباتُ سِهامَ اللوم المارِقةِ في عَزيمَتِك. كل هذا يُخضِعُكَ إلى عملياتِ التَزييفِ البَطيء.

قد تُلقي بكَ الحياةُ في غَياهِبِ المِثاليةِ المَرَكَّزةِ و المَحضة، تَحبِسُكَ تحتَ أسقُفٍ سامِقةٍ منَ التوَقعات. فقط أنظُر حولَك! شاشاتُ الهَواتِف، تلكَ الأجهِزةُ الصَغيرةُ المُنافِقةُ التي تَصِلُكَ بالبَشَر و تَستأصِلُكَ عنهُم. هُناكَ على زُجاجِها يعيشُ أسرابُ المُزَيَّفين، أفواجٌ منَ الأرواحِ المُقَنَّعة، كلٌ يَسعى إلى ذَرفِ المِثاليةِ الخالِصةِ على طَريقَته. هُناكَ تُطهى الابتِساماتُ الصَفراءُ في غُضونِ لَحظةٍ على الوُجوهِ الحَجَريةِّ البارِدة. إنَّ العالَمَ وراءَ تلك النَوافِذ مَحفوفٌ بأطيافِ السَراب. قد تكونُ ضَحيةًّ من ضَحايا المُجتَمَعات الرَقميةِ البَحتة، حيثُ تَتَهافَتُ عليكَ الأرقامُ الكبيرةُ من كل حدبٍ و صَوب، و تَتَسارَعُ الأفواهُ بمُطالَبَتِكَ بتَسَلُّقِ الأعدادِ للوصولِ إلى المَجد. مُجتَمَعاتٌ تَركَعُ أمامَ المَقاييس، حيثُ يَتَدَلّى قَدرُ المَرءِ مِن ثُقوبِ بعضِ الأرقام، تَحصِرُ النجاحَ على أسطُرِ الشهادةِ المَدرسية، ثمَّ ينتَقِلُ ذلك النجاحُ المُكَبلُ للعيشِ على الشهادةِ الجامعية، و من ثمَّ يَمكُثُ في عددِ ساعاتِ العمَل، و هكذا يبقى المُجتَمَعُ مُنهَمِكًا في اختِراعِ حِساباتٍ جديدةٍ لقياسِ أهَميّةِ المَرء، يَستَمرُّ الناسُ في حَشوِ بَعضِهِم بالمَساطِر و الهَذرِ بالمَعايير المُحَنَّطة.

لا تَمنَحهُم الصَولَجان، لا تَمنَحهُم السُلطةَ عليك، و لا تَترُكهُم ليُعَلِّقوكَ على شَمّاعةِ الفشَلِ فتُصبِحُ عِذقًا منَ القوى المُتآكِلة. لا تسمَح لأحدٍ بتَصنيفِكَ فقط لأنَّكَ لم تُحرِز

رقمًا مُعيَّنًا. تعَلَّم فَنَّ رَسمِ الحُدود، و إلا فسيَستَمِرّونَ في إبعادِكَ عن نفسِك، و قد تجِدُ نفسكَ يومًا تُحَلقُ إلى الأين داخلَ فُقاعاتِ الزَيف، بينَما حَقيقَتُكَ المَغدورةُ تنظرُ إليكَ منَ الأسفَل.

# الأيادي الكاشِفة

أجِدُني كثيرًا أتَلَوّى بينَ حزَمٍ قاسيةٍ منَ الظُروفِ العَصيبة، و كأنَّها كُلُّها تتَوَحَّدُ لكَسري بضَربةٍ قاضية، لتَهشيمي، لتَقطيعي إرَبًا إرَبًا. ربما تُطَوِّقُني هاتيكَ الظُروفُ بأشواكِها حتى أمَلَّ العيش، و أقذِفَ ببَقايا ذَرّاتِ صَبري في جُبِّ الاستِسلام، ثم ألحَقُ بها إلى قَعرِ الجُب. لرُبما تَتَزاحَمُ حولي النَوازِلُ لتُرغِمَني على حَفرِ أخدودٍ منَ الرُضوخِ المُطلَقِ و الجُلوسِ داخِلهُ لأراقِبَ الحياةَ المُهَروِلةَ من ذلكَ المقعَدِ اللاهِب. ربما و ربما و ربما...

لكن ما أعرِفُهُ حقَّ المَعرِفةِ هو أنَّ عَواصِفَ الحياةِ لا تَتَخَبَّطُنا إلا بأمرٍ منَ الله. هيَ رسائِلُ الإلهِ الى أرواحِنا التي لم تتَخَلَّ بعدُ عن طابعِ الهَشاشة. عندما أكونُ في أوجِ العَواصِف و داخِلَ أرحامِ الضُغوطات، أشعرُ بالحياةِ تُمَشّطُ شُخوصَها مِن حولي، يَسودُ على كل شيءٍ طابعٌ منَ التَهذيب. بينما أتَوَغَّلُ في مَشاكِلي أجدُ حياتي تُنَقّحُ ذاتَها و تَنفُضُ الرُكامَ عنها بكل رَويّة. هذهِ هي الحقيقة...

إنَّ عَواصِفَ الحياةَ و مَتاريسَها ما هيَ إلّا أيادٍ مَبعوثةً من الرَب، تَعبَثُ بأدراجِ أولوياتِنا لتُعيدَ تَرتيبَها، تأتي لتُنَظِّمَ مَلَفّاتِ اهتِماماتِنا المُبَعثَرة و تُعيدَ تسَلسُلَ حِساباتِنا. جميعُ أصنافِ الابتِلائاتِ أشبهُ بأظافِرَ مُسَخَّرةً لانتِزاعِ الأقنِعةِ و تَعريةِ مَعادنِ الناسِ من حولِنا، لكَشطِ قُشورِ التَمَلُّقِ و النَبشِ في لحمِ الحَقائِق. لطَماتُ القَدّرِ تُسقِطُ عن أعيُنِنا العِصابات و تُجبِرُنا على رؤيةِ كل شيءٍ بوُضوحٍ مؤلِم.

# سألتُ قاموسي

سألتُ قاموسي يومًا: تُرى ماذا تقولُ ثَناياكَ عن الأوطان؟ بماذا تُعَرِّفُ صفَحاتُكَ الوطَن؟

تَفَرَّسَ في عينَيَّ الفُضوليَّتَين المَحجوَّتَينِ بالحَيرة. صمَتَ هُنيهةً ثم أردَف: إنَّ الأوطانَ أكبرُ بكَثيرٍ مِن أن تُحشَرَ في القَواميس، و أوسَعُ مِن أن يَظلِمَها الحِبرُ بخَطِّ أسمائِها على المَعاجِم.

ألَمَّت بقسَماتي دَهشةٌ عارِمة، فقد ظنَنتُ أنَّ بَلَدي صَغيرُ الحجم، هذا ما أشارَت إليهِ كُتُبُ الجُغرافيا المَحفورةُ في عقلي. فِضتُ على ذلكَ القاموسِ بِما أملِكُ من مَعلوماتٍ و ذَخائِر، و الغريبُ أنّهُ ضَحِكَ مما قُلت، و كأنني قصَصتُ عليهِ طُرفة. أخبرَني ساعتَئِذٍ أنَّ الأوطانَ لا تُقاسُ بالمِساحاتِ العاجِزة. قالَ أن الوطنَ أعظَمُ مِن بُقعةِ أرضٍ أو مَساحةٍ لونِيّةٍ تَتَوَسَّدُ خارِطة. أخبرَني أيضًا أنَّ الوطنَ مَنبَعٌ سَخِيٌّ تَنسَلُّ منهُ مَعانٍ جَزيلةٌ و تَعاريفٌ كثيرة، و أنهُ قادِرٌ على تَقَمُّصِ أشياءٍ عَديدةٍ في آنٍ واحد. لم أنبِس ببنتِ شَفة، و جلَستُ أستَمِعُ لأقاويلِهِ الغريبة.

أخبرَني أنَّ الوطنَ هوَ الألوانُ التي يتَّخِذُها كل شيءٍ في حَضرةِ المحَبّة. الوطَنُ حالةٌ منَ الوَجَفِ و العُنفوانِ اللَذيذ الذي يَحُطُّ على مِساحاتِ الخَواءِ في أرواحِنا. الوطَن هو ذلكَ الأمانُ الغريبُ الذي يَحتَضِنُ قُلوبَنا وسطَ زَخَمِ دَويِّ البَنادِق المُتَسابِقِ الى الآذان. هو الأحضانُ المُستَعِدّةُ دائمًا لتَشَرُّبِ دُموعِنا دونَ كلَل، ألسِنةٌ لا تَذرِفُ إلّا الصِدق، قُلوبٌ ما زالَت تَحتَفِظُ برَونَقِها و نَقائِها القديم. الوطَن هو لُقمةٌ هانِئةٌ تَضيعُ في أفواهِنا، تَذوبُ في وطأةِ الأحاديثِ و الضَحِكات. يتَجَسَّدُ فيَ شُعورِ النَشوى الذي

يَنتَفِشُ في أبسَطِ الأمور، شُعورٌ يَنسَلُّ من بينِ أصابِعِ الكلِمات، و يَهربُ وقعُهُ من حوزةِ الأقلام.

إنَّ الأوطانَ ليسَت مُجَرَّدَ شَوارِعَ و مَعالِمَ تحتَشِدُ داخلَ أُطُرِ الحُدود، ليسَت لُغةً تسيرُ على نَهجِها الألسُن، إنها أكثرُ من تلكَ الحَقائقِ الشَحيحة. الوطَنُ هو عندَما تستَقِرُّ الحياةُ الحَقيقيةُ في مَظاهِرِ الحياة.

# جُرعةُ ساعاتٍ أخرى

استيقاظٌ آخر، رحلةُ عودةٍ أخرى إلى رَحى الواقِع، ذلكَ الواقِعُ الذي يَصفِقُ أبوابَ الأحلامِ في وُجوهِنا. حشَرَت نِشابُ الشمسِ المؤلِمةُ نفسَها بينَ جُفوني مرةً أخرى، مِثلَ خَيبةٍ مُتَدَلّيةٍ مِن أهدابي، ها أنا أعيشُ مرةً أخرى. أفتحُ عينيَّ و أرمُقُ نافِذةَ غُرفَتي بنَظرةٍ فارِغة، لا زالَت تلكَ النافِذةُ كما هي، مُرَبَّعًا يَزدَرِدُ ناظِرَي إلى الغُربةِ المَمدودة، إلى آفاقِ اللاوَطَن. ذلكَ القُرصُ المُصَطَّحُ العائِمُ في السَماء، كأنّهُ طَبَقٌ يُقَدِّمُ لي مزيدًا منَ اللحَظاتِ المَرصوفة، مزيدًا منَ الدَقائِق التي لا أعرفُ كيفَ أقتُلُها، على ذلكَ الطبَق تجلسُ أربَعٌ و عشرونَ ساعةً جديدة، تَضحكُ مني.

نفسُ الجُدران، ما زالَت تُحَدِّقُ بي مُتَهامِسةً بنَبرةِ الوُجومِ الكَئيب، بلُغةِ الصَمتِ المُكرَهةِ إلى نفسي. الجُدرانُ في نظَري ليسَت سِوى مجوهٍ منَ البَياضِ المُطلِقِ كالمُستَقبَلِ المُنتَصِبِ في مَرمى البَعيد، مُستقبلٌ كَشَطَ عنهُ الأمارات و دبَجَ في مواضِعِها طبَقاتِ الغُموض. أظلُّ أُحَدِّجُ الغُربةَ المُلاصِقةَ لذاتي كالعَلَق. فتَنظُرُ إليَّ بكلِّ تَحَدّي، لا تنطقُ بشيءٍ سِوى الصَمت، لكنَّ صمتَها المُحَشرِجَ ما يزالُ يَعلو و يَعلو يُصاحِبهُ نَشيجُ فؤادٍ مَنخور. ذلكَ الصمتُ هو صوتٌ أيضًا، صوتُ توَسُّعِ الفَجوةِ في الأعماق، صوتُ الفَتقاتِ المُحدَثةِ في الروح. صوتٌ مُتَغَطرِسٌ يَصدَحُ مُدَثِّرًا خَريرَ دِجلَتي البَعيدة.

# أيُّ عيد؟!

لا أعرفُ ما هذا العيد...

مُجرَّدُ أيامٍ مَطلّةٍ بالشُحوب. ثَلاثة أو أربعة أيام، تُشبِهُ الشُعيراتَ البَيضاءَ المُتَساقِطةَ من لِحيةِ ذلكَ العيدِ الأردَدِ الذي دَحَرَهُ الهِرَم، في حينِ ما نزالُ نحنُ أطفالًا، مُكتَنِزينَ في أكياسِنا المَعقودةِ نُفوسًا بَريئةً رَخوة. ما نزالُ نُرسِلُ أيدينا المُمتَدّةَ لاقتِطافِ بَقيّةِ الطُفولة، نُجيلُ أصابِعَنا في جُيوبِ العيدِ المُقفِرة، و المَثقوبةُ بحَفّارةِ الزَمَن. العيدُ الذي أصبحَ يَمُر مُرورَ الكِرام، مُكتَفيًّا بتَمريرِ أناملهِ على شُعورِ الأطفال و فوقَ الشَوارِع. صارَ يَقتَطِعُ زُبَرًا صغيرةَ مِن ذاتهِ و يوَزّعُها بينَ البُيوتِ كأنَّهُ أبٌ مُشَرَّدٌ يُطعِمُ أولادَه، فتَسقُطُ في كل بيتٍ قَطرةُ عيد. لا أعرِفُ لماذا لوَّثَ عيدُنا وجهَهُ بمَساحيقِ الأيامِ الأخرى، لماذا سارَ على نَهجِ الرَتابةِ كأقرانِه؟! أصيبَت أيّامهُ الموروثةُ بالتَقَلُّص، و استَحالَ من ثَلاثٍ أو أربَعٍ إلى يومٍ واحدٍ فقط. يومٌ واحدٌ مُخَصَّصٌ لذَرفِ التَهاني و التَبريكاتِ المُرفَقَةِ بِبَسَماتِنا المَسروقة، يومٌ يُرّددُ فيهِ العالمُ ذاتَ العِبارات الفارِغة العاريةِ منَ الشُعور. يومَ تُحيلُ الأصولُ عالمَنا إلى قَفَصٍ كَبيرٍ منَ البَبَّغاوات، يومَ تَغدو البُيوتُ رُفوفًا تُرَصُّ عليها تلكَ الطُقوسُ المُكَررة، مَوائِدَ تُوَزَّعُ فوقَها كُثبانٌ منَ الأماني العَقيمةِ الماسِخة. بعد ذلكَ اليومِ الوحيد، ينضَبُ العيدُ و يأوي كلٌ منّا إلى نَفسه، يلِجُ إلى بابِ عالَمهِ مُنهَكًا مِن ثِقَل الزيفِ مُهَشَّمًا تحتَ وَطأةِ التِكرار.

# هَدايا الله للغُرَباء

الغُربةُ راهِبةٌ مُتَزَمِّتة، تحبِسُنا دائمًا في غُرَفٍ من أضيَق ما يكون. إنَّ مُتعةَ المُغتَرِبين تَستَلقي في سُرى اللحظاتِ مُزدانةً بالبَساطة. علَّمَتنا غُربَتُنا ألّا نَمُدَّ سَعاداتِنا إلى آفاقِ المُستقبلِ المجهولة، علّمَتنا فقط أن نَطفو على مَتنِ قَوارِبِ اللحَظاتِ التي نُجَمِّلُها بأيدينا، نحيكُ منها بعضَ المسَرّات، بعضَ مُبَرراتِ العَيش. الغُربةُ بكل أطيافِها و أحزابِها و أنواعِها، تحشُرُنا في إطارٍ ضيّقٍ مُكَونٍ منَ الآن و هُنا، الآنَ و هُنا فقط. فنَعيشُ على أرغِفةِ الحاضِرِ المُقَطَّرة. نرتَشِفُ لحظةً تلوَ الأخرى، باذِلينَ مُحاوَلاتٍ مُستَميتةٍ للاستِمتاع.

نحنُ الغُرَباءُ بينَ كثيرٍ منَ الأشياء، بينَ أراضٍ لم تُهَدهِدنا في طُفولَتِنا، بينَ ظُروفٍ مُصطَكّةٍ حولَنا كأسنانٍ دونَ فُتحات، دونَ مَخارِج. غُرَباءٌ في لُجاجِ أنفُسِنا أو بينَ ذَوينا و أهلِنا. إنَّ الغُربةَ مُتَعَدِّدةُ الوُجوه، تحشُرُ نفسَها في كل الأمكِنة، تَتَواجَدُ غالِبًا حيثُ لا نتَوَقَّعُ أن نَجِدَها. إلّا أنّها تُتيحُ لضَحاياها فُرصةَ الاستمتاعِ بكلِّ لحظة.

قد يجِدُ المُغتَرِبونَ نَشوَتَهُم في حَنايا مُتَفَرِّقة، في أزِقّةٍ ضَيقةٍ ما بينَ خطواتِ اللحظاتِ المَرصوفةِ في اليوم، ما بينَ الدَقائِقِ المُتَعاقِبةِ لتَنسُجَ الساعات. قد يَعثُرونَ على أرواحِهِم في ثَنايا شخص، أو على أرصِفةٍ مُعشِبة، أو على أجنِحةِ الخَمائِلِ الوارِفة. سَعادَتُهُم تَتَصاعَدُ معَ الأبخِرةِ المُنبَثِقةِ من قهوةِ الصَباح، يتبَعونَ خُيوطَ البُخارِ المُضمَحِلّةِ كأنَّها مُقتَطَفاتٌ من رياحِ بِلادِهِم. يَترُكونَ حَواسَّهُم على حَوافِّ الفَناجين، ساهِمينَ في امتِدادِ باحاتِ الصُبحِ المُتَرامِيةِ على خُطوطِ الأفُق، راكِبينَ صَهوةَ الثَواني الآتِلةِ المُتَمَهلة. ربَّما يغرَقونَ في قُبلةِ الغُروبِ الساحِرة، حيثُ تَلثِمُ شَمسُ اليومِ صَدرَ

البَحرِ قبلَ مُغادَرَتِها. إنَّ القَصائِدَ بالنِسبةِ للمُغتَرِبِ ليسَت مَحضَ جُمَلٍ مَقروءة، هي أصداءُ صوتِ الوَطَن، سُطورٌ دافِئةٌ يتَلَحَّفُ بها مُحتَمِيًا مِن صَقيعِ الوَحشة. أبياتُ القَصيدةِ خُيوطٌ منَ الأمان، فَتائِلُ السَكينة. دائمًا ما يجِدونَ أنفُسَهُم بينَ النوتاتِ الموسيقية، مَحمولينَ على ظُهورِ أمواجِ الهَواءِ الخَفية الهازِجة، يُبحِرونَ إلى حيثُ أوطانُهُم المُصَغَّرة.

إنَّ المُغتَرِبينَ يجِدونَ أوطانَهُم في أرحامِ الشَغَفِ اللامَلموس، يكتَفونَ بنِعمةِ الوُجود، بالوُجودِ المُتَجَرِّدِ من كل الكَماليّات. يأنَفونَ و يَتَرَفَّعونَ عنِ عِبادةِ المادّة، تَحتَجِنُهُم المَشاعِرُ في أحضانِها الفَيحاء و تُحَلِّقُ بهم بعيدًا، بعيدًا عن آلِهةِ الجَماداتِ الأنيقة المُسَمّاةِ بدُنيا البشَر.

**كنتُ أبحَثُ عني طَويلًا... حتى وجَدتُني مُرتَميةً بينَ أشياءٍ لا أستَطيعُ لَمسَها.**

# قبلَ أن يُرفَعَ القلَم

قبلَ أن أرفعَ قلَمي و أريحَ ضَميري، أقولُ أنَّ الغُربةَ لا يجبُ أن تكونَ نِهاجَنا المُؤبَّد، لا يجبُ أن نَستَقِرَّ فيها أو أن نَنسَلَّ باستِمرارٍ مِن ما حولَنا. سأناقِضُ نفسي على بطنِ هذهِ الصَفحةِ و أقولُ أنّهُ لا بأسَ ببعضِ الانسِجامِ أحيانًا معَ مُجرَياتِ الحياة، لا ضيرَ من مُحاولةِ الاندِماج، و ما أعنيهِ هُنا أنَّ مُصاحَبةَ الغُربةِ و مُسايَرَتَها قد يكونُ جميلًا. منَ الرائعِ أن نُزَينَ جِراحَنا العَميقةَ بشَذَراتِ التَقَبُّل، برَشّةٍ منَ الخُضوعِ للأمرِ الواقِع.

صحيحٌ أنَّني لا أستطيعُ أن أسكُنَ في الوطَن، إلّا أنني تعَلَّمتُ أن أصنعَ لنَفسي أوطانًا هُنا و هُناك، كأسقُفٍ منَ النَخيلِ تَحميني مِن وابِلِ غُربَتي.

ما زلتُ أبحثُ عن شُقوقٍ جديدةٍ تَقودُني إلى أوطانٍ مُؤقَّتة، إلى حينِ موعِدِ العودة.

**المؤلفة م. ر.**

تمت

1/10/2021

مينا راضي

# للتَواصُل مع المؤلفة:

Instagram @Mina_Radhi

Facebook مينا راضي

اختَرَقَت سُطورُنا المَسافات،
حطَّت حُروفُنا هُنا، بينَ هذهِ
الأوراق.
نُقرِئُكُم السَلامَ يا أبناء الوطَن.
أتمنّى أن نتَبادَلَ الأمكِنة، من
خلالِ أن تدخلَ أنت يا عزيزي
القارِئ، عبرَ هذهِ النافِذة، إلى
حيثُ الغُربة.

م.ل